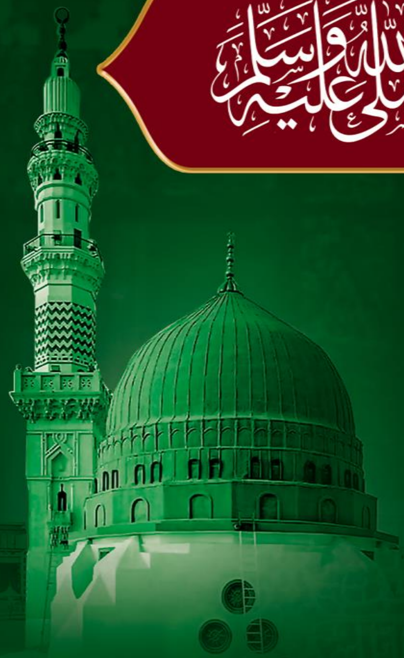
أم لم يعرفوا رسولهم

في معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم





بقلم
محمد زاهر حسين الهويدي

أم لم يعرفوا رسولهم

في معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم



بقلم

محمد زاهر حسين الهويدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شقَّ دَياجيرَ العَدم.. بإشراق نورِ سيِّد الأُمم.

والصَّلاة والسَّلام على أوَّل المُبدَعات، وطُورِ كمالِ التَّجليات، صورةِ الاسمِ الجامعِ لجميع الحضَرات، وعلى آله وأصحابه أهلِ الكمالات، **وبعد:**

لمَّا كان التَّعلُّقُ برسول اللهﷺ والتَّقرُّبُ مِن جنابِه الشَّريفِ رجاءَ كلِّ مسلم، ومرامَ كلِّ مؤمنٍ، وغايةَ كلِّ مُحسنٍ مُوقن.. كَتَبَ أهلُ الله العارفونَ شذراتٍ ولَمَعاتٍ، وإشراقاتٍ ونفحاتٍ؛ مـمَّا وَصَلَ إليه ذوقُ كُلٍّ منهم مِن معرفتهِ بهذا الجنابِ الشَّريفِ عليه أفضلُ الصَّلوات وأزكى التَّحيات.

ولَمَّا كانتِ الأذواقُ تَرجِعُ في فهمها إلى أصحابها، **أو** ذائقٍ يَغرفُ منها لأحبابها ومُستحِقِّها مِن طُلَّابِها، **أو** مُستشرِفٍ حازَ مِن أمدادِ أقطابِها وأربابها.. **كان** التَّخليطُ واقعاً مِن الغَريبِ عن أولئك، والأجنبيِّ عمَّا هنالك، والمُدَّعي الذي يَزعُمُ الجلوسَ على الأرائك؛ فأردنا تلخيصَ أقوالِ العارفينَ وحُماةِ هذا الدِّين.. بما يَحلُّ عُقَدَ الالتباس، ويوضِّحُ المَعاني في الاقتباس، فيكونَ للسَّالكينَ الطَّالبينَ كالمَرجِعِ الأساس، ويَنهل منه أهلُ السُّلوكِ فينفعُ النَّاسَ بإذن ربِّ النَّاس.

وقد أسماها شيخُنا **السَّيدُ مُحَمَّد وائل الرَّاوي** حفظه الله ورعاه، بـ: «**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ**» اقتباساً مِن الآية الكريمة[1]؛ فإنَّه سبحانه ما ذمَّ مَن جَهِلَ رسولَه.. إلَّا لأنَّ معرفتَه صلَّى اللهُ علَيه وسَلَّمَ واجبةٌ، وكيف لا تكون كذلك؛ **والجهلُ بالرَّسول.. جهلٌ بالمرسِل جلَّ وعزَّ**؛ فإنَّ الخلقَ ما عرفوه سبحانه.. إلَّا مِن باب رُسُلِهِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين، سواءٌ بإخبارِهم أو أفعالِهم أو أحوالِهم.

ولمَّا كان سيدُنا مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ علَيْهِ وآله وسَلَّمَ واسطةَ عِقد النَّبيِّين والمُرسلِين، وسيِّدَ ولَدِ آدمَ أجمعين.. **كان** طَلَبُ معرفتِه صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ أشدَّ وجوباً، والتَّعلُّقُ بجناب حضرتِهِ الشَّريفةِ حِرزاً مَطلوباً، حتى إنَّ المولى سبحانه.. أخذَ العهدَ على النَّبيِّين - قبل مبعثه صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ - بأن يتَّبعوه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمْرَان : ٨١] ؛ فعرَّفَهم به فعرَفوه، ثمَّ جَمَعَهُمْ به ليلةَ الإسراءِ فقدَّموه، فكان الأنبياءُ والرُّسلُ على الحقيقةِ أتباعَه فمَا تَقدَّموه؛ بل عظَّموه

---

(١) قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المُؤْمِنُون : ٦٩] .

وبجَّلوه بما عَلِموه وشهِدوه، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨ - ٩] ﷺ

❁ ❁ ❁

تمهيد

• لِتعلمَ قبلَ قراءةِ أيِّ كلامٍ يَختصُّ بالعارفِينَ رضي الله عنهم أجمعين؛ بأنَّ لهم اصطلاحاً مَنصوصاً، وإدراكاً مَخصوصاً؛ فلا يجوز لأحدٍ اقتحامَ كلماتِهم بفهمِه ولا بإدراكِه.. مالم يَعرِف أصولَهم المُحكَمَة، ويَسلُك طريقَهم ويُحكِمَه؛ ذلكَ لأنَّ كلماتِهم أذواقٌ وإنْ كتبوا بعضها في الأوراق، وليس مِن قوَّةِ الأوراقِ أنْ تعطيَ إدراكَ الأذواق، إلَّا بصحبتِهم والتَّبرُّكِ بمحبَّتِهم.

• ومع هذا فإنَّ كلامَهم وأذواقَهم.. لا تخرجُ عن الضَّروريِّ مِن الدِّين، ولا تهتِكُ سترَ الشَّرعِ الأمين، وكيف لِمن يزعُم ذوقَه للحقيقةِ.. أنْ يخالفَ الشَّريعةَ؛ والحال أنَّ الشريعةَ.. حقيقةٌ من الحقائق؟! هذا لا يكون إلَّا مِن: مُفترٍ مُرتاب، أو مدَّعٍ كذَّاب، أو جاهلٍ بالصَّواب.

• قد علمَ النَّاسُ مِن أهلِ الحقِّ -قاصيهم ودانيهم- أنَّ طريقَ السَّادةِ الصُّوفيَّةِ.. محرَّرٌ على الكتاب والسُّنَّة، وأنَّ كلامَهم وإنِ احتوى على الحقائق العاليةِ والأسرارِ الغالية.. نورٌ في نورٍ على نور، لا يَخرُج في نفْسه عن مُعتمَد الشَّرعِ كما هو مَسطور.

أمَّا أهلُ التَّخليط الذين يتشبَّهون بالأولياء.. فإنَّهم يحفظون جُملاً من كلامِهم، ويفهَمونها على حسب مَرامِهم مُمتزجةً بأهوائهم، ويَخلِطونها بتعقُّلاتِهم وسَرابِ أفكارِهم؛ فإنَّهم يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الضَّلال، ويَمُدُّونَ أتباعَهم بالظَّلامِ وشَنيعِ الخِصال.

وقد كان ساداتنا الصُّوفيةُ.. أوَّلَ النَّاسِ يُحذِّرونَ الخَلقَ مِمَّن يتشبَّه بطريقهم وليس منهم، ومَن تشبَّه بكلام أهلِ الذَّوق ولا ذوقَ عندَه.. فلابدَّ مِن تَخْليطِهِ؛ فهو كمَن يصِفُ لغيره طعمَ العَسلِ ولَم يَذُقْهُ قطُّ.

واعلم أنَّ لكلامِ أهلِ الله نوراً يُرشدُ الصَّادقين، ويهدي المُتَحيِّرين، ويزيدُ المُوقنين.

وقد يكون الرَّجُلُ صالحاً في نفْسِهِ، ذائقاً مُتضلِّعاً مِن العلوم الحقِّيَّة؛ غيرَ أنَّه **لا إذنَ** عنده في الكلام؛ فإنْ تكلَّمَ.. لا يُسمع منه؛ بل يُنكَر عليه! وذلك لِعدم وجود الإذن.

فلا يكون الرَّجلُ مُرشداً للسَّالكين مِن غير إذنٍ ولو كان صالحاً في نفسه؛ وإلَّا فسيُضلُّهم مِن أقرب الطُّرق، ويُغويهم بأيسرِ الكلمات.

قال سيِّدي ابنُ عطاء الله السَّكندري رضي الله عنه: (**مَن أُذِنَ لهُ في التَّعبير.. فُهِمَتْ في مَسامع الخلق عبارَتُهُ، وجُلِّيَتْ إليهم إشارتُه**)[1].

وقال كذلك: (**رُبَّما برزَتِ الحقائِقُ مكسوفةَ الأنوار.. إذا لم يُؤذَن لكَ فيها بالإظهار**)[2].

قلتُ: وهذا الكلامُ فيمَن هو مِن الذَّائقين غيرِ المَأذونينَ، فكيفَ بغيرهم ممَّن هو ليس بذائقٍ أصلا ومعَ ذلك يتصدَّرُ للإرشاد؟!

❁❁❁

(١) انظر شرح الحكمة في «التنبيه»(ص٧٠٤) لسيدي ابن عباد.

(٢) انظر شرح الحكمة في «التنبيه»(ص٧٠٦) لسيدي ابن عباد.

الفصلُ الأوَّلُ:

لِمَ تتعيَّنُ معرفتُه والبحثُ في شؤونهِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ؟!

ذكر بعضُ العارفين رضي الله عنه أوجهاً لذلك **فقال:**

الوجه الأول:

إنَّ معرفةَ صفاتِه السَّنيَّةِ ونُعوتِه البهيَّةِ السَّميَّةِ.. وسيلةٌ إلى امتلاءِ القلبِ بتعظيم شريعتِه؛ لأنَّ حُرمةَ الكلام على قدْر حُرمةِ المُتكلِّمِ به، وتعظيمَ الشَّريعة واحترامَها.. وسيلةٌ إلى العملِ بها والوقوفِ عند حدودِها، والارتباطِ لأمرها ونَهيها، وإيثارِها على مألوفاتِ النَّفس وعوائدِها وشهواتِها الشَّاغلةِ لها عن مالِكِها وخالِقِها، وذلك هو معنى الانقطاعِ إلى الله؛ الذي لأجلهِ خُلِق الأنسانُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦].

وهو وسيلةٌ إلى السَّعادةِ الأبديَّةِ والسِّيادةِ السَّرمديَّةِ، والفوزِ برضوان الله تعالى؛ الذي هو غايةُ رَغبةِ الرَّاغِبين، ونهايةُ آمالِ المؤمِّلين وطلبِ الطَّالِبين، **«اليومَ أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْواني، فلا أَسْخَطُ عليْكُم بَعْدَهُ أبداً»**(١).

(١) متَّفق عليه: البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩).

وهذا مِن فوائدِ تنويهِ الله تعالى بقدْرِه وتعظيمِ شأنه وأمرِهﷺ؛ في غير ما آيةٍ من كتابه العزيز، قال مولانا جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عِمْرَان: ٨١] الآية، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفَتْح: ١] الآية، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفَتْح: ١٠]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمْرَان: ٣١].

الوجه الثَّاني:

إنَّ معرفتَها تتضمَّن معرفةَ حُسنِه وإحسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلك وسيلةٌ إلى مَحبَّته؛ لأنَّ أسبابَ المَحبَّة وإن تكاثرت.. فمدارُها على أمرين: الحُسْنِ والإحسانِ؛ فإنَّ النُّفوسَ مجبولةٌ على حُبِّ الحُسْنِ؛ كما إنَّها مجبولةٌ على حُبِّ المُحسِنِ إليها، ولا حُسْنَ يُماثلُ حسنَه، كما لا إحسانَ يُماثل إحسانه إلينا؛ إذ كلُّ خيرٍ وبركةٍ - قلَّت أو جلَّت -.. منهُ حَصَلَتْ، وبطلعته ظَهَرَتْﷺ.

ومحبَّتُه هي روحُ الإيمان الذي هو أصلُ كلِّ سعادةٍ وسيادةٍ، وفي محبَّتنا له صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِنَنٌ عظيمةٌ عَلَينا؛ لأنَّها موجِبَةٌ لِمعيَّتِهِ ومُجاورَتِهِ

وصُحبتهِ؛ لحديث: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[1] و: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[2] وقد قال: «ما اخْتَلَطَ حُبِّيْ بِقَلْبِ أَحَدٍ فَأَحَبَّنِيْ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ على النَّارِ»[3].

الوجه الثالث:

إنَّ السَّعيَ في معرفتِها.. خدمةٌ لِجنابه صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ، وثناءٌ عليه، وتعلُّقٌ به، وتعظيمٌ لقَدْرِه، وتقرُّبٌ وتودُّدٌ، واستعطافٌ وانتسابٌ، وتعرُّضٌ لنفحاتِ فضلِ المَمدوحِ، واستمطارٌ لسَحائبِ إحسانِهِ، واستنزالٌ لغزيرِ بِرِّهِ وامتنانه، ومدٌّ لِيَدِ الفاقةِ والاضطرارِ، وبَسطٌ لِبساط الإلحاحِ والإكثار، وفتحٌ لأبوابِ خزائنِ ما يأتي مِن قِبَلِه؛ فإنَّ الكِرامَ إذا مُدِحوا.. أجزلوا المواهبَ والعطايا، وقد أعطى العباسَ بنَ مِرداس لمَّا مدحَهُ صلَّى الله عليه وسلَّم مائةً مِن الإبل، وخلَع حُلَّتهُ على كعبِ بن زهير لَمَّا مدحهُ بقصيدتهِ التي يقول فيها:

إنَّ الرَّسولَ لسيفٌ يُستضاءُ به مهنَّدٌ مِن سيوفِ الله مسلولُ

وفي ذلك أيضاً: تعرُّضٌ لنفحاتِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّه إذا كانت رحمتُه تعالى تتنزَّل عند ذكرِ الصَّالحينَ.. فما بالك بسيِّدهم وسندِهم ومُمِدِّهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؟!

---

(١) متَّفقٌ عليه: البخاري (٦١٧١)، مسلم (٢٦٣٩).

(٢) متَّفقٌ عليه: البخاري (٦١٦٩)، مسلم (٢٦٤٠).

(٣) أخرجه الحافظ أبو نُعيم في «الحلية» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وبالجملةِ: فبأدنى انتسابٍ إليه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.. يحصل غايةَ النَّفع والشَّرف؛ إذ لم يخلقِ اللهُ تعالى خلقاً أكرمَ عليه مِن مولانا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولم يَخلُق جاهاً أعظمَ مِن جاهه صلَّى الله عليه وسلَّم.

قال الشَّيخُ سيِّدي عبد الوهاب الشَّعرانيُّ رحمه الله تعالى:

ما في الوجودِ مَن جعلَ اللهُ تعالى له الحلَّ والرَّبطَ -دُنيا وأُخرى- مثلَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فمَن خدَمَهُ على الصِّدقِ والمَحبَّةِ والوفاءِ.. دانت له رقابُ الجبابرةِ، وأكرمه جميعُ المؤمنينَ؛ كما ترى ذلك في مَن كان مُقرَّباً عند ملوكِ الدُّنيا، وكما أنَّ غلامَ الوالِي لا يُتعرَّضُ له إكراماً للوالي.. فكذلك خدَّام النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا تَتعرَّضُ لهمُ الزَّبانيَةُ يومَ القيامة؛ إكراماً لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.(١)

وللشَّيخِ العلَّامةِ الصوفيِّ المحقِّق أبي عبد الله سيَّدي محمَّد بنِ عبد الرَّحمن زِكْرِي(٢) **في «همزيَّته»**:

(١) باختصار من «لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمَّدية» (ج١/ ٤٣٧-٤٣٨) لسيدي الشعراني رضي الله عنه.

(٢) هو أبو عبد الله محمَّد بن عبد الرحمن بن زِكْرِي: الإمام العلامة الفقيه النبيه الفهَّامة المتفنِّن في العلوم الحامل لواء المنثور والمنظوم. أخذ عن الشيخ عبد القادر الفاسي وانتفع به، وأحمد بن العربي ابن الحاج، وأبي عبد الله ←

وإذا مـا الجَنـابُ كـان عظيمـاً مُـدَّ مِنـهُ لخادِمِيْـهِ لِـواءُ
وإذا عظُمَـتْ سِـيادَةُ مَتبـوعٍ أجَـلْ أتباعُـهُ الكُبَـرَاءُ

وقد وردَ أنَّ «**مَنْ قَالَ: جَزَى اللَّهُ عَنَّا مُحَمَّدًا مَا هُوَ أَهْلُهُ، أَتْعَبَ سَبْعِينَ كَاتِبًا أَلْفَ صَبَاحٍ**»(١)، وفي روايةٍ: «**ألفَيْ صباح**»(٢).

الوجه الرابع:

إنَّ معرفةَ صفاتِه.. مُعينةٌ على شهودِ ذاكرِهِ لِذَاته، وفي رُؤيتِه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يَقَظةً أو نوماً.. فوائدُ عظيمةٌ ومَزايا كثيرةٌ فَخيمةٌ، وانظرْ إلى قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إنَّ لله عباداً مَنْ نَظَرَ فِيْ وَجْهِ أَحَدِهِمْ نَظْرَةً سَعِدَ سَعَادَةً لا يَشْقَى بَعْدَهَا أبَداً**»(٣)، وقوله: «**هُمُ القومُ لا يَشْقَىْ جَلِيْسُهُمْ**»(٤) مع أنَّهم ما نالوا ذلك.. إلَّا بنورِه المُشرقِ عليهم، ومددِه السَّاري فيهم ﷺ.

محمَّد المسناوي، وميَّارة الصغير، وغيرهم. وعنه الشيخ محمَّد جُسُوس وغيره. له مؤلفات مفيدة وأجوبة عتيدة، وكلها غاية في التَّحقيق. توفي سنة (١١٤٤ هـ) [١٧٣١م]. انظر «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لمحمد مخلوف.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٣٥) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم أقف على هذه الرواية فيما بين يدي من كتب الحديث.

(٣) لم أقف على هذا الحديث فيما بين يدي من كتب الحديث، غير أنَّ معناه صحيح تدل عليه عمومات الأحاديث الصحيحة، كما في الحديث القدسي الصحيح الذي سيذكره: «**هُمُ القومُ لا يَشْقَىْ جَلِيْسُهُمْ**».

(٤) متَّفق عليه: البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الوجه الخامس:

إنَّ في ذِكرِها وسماعها.. تَنَعُّماً وتَلذُّذاً بحبيب القلوبِ وقُرَّةِ العيون صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وهو ضرْبٌ مِنَ الوصال به، ووجْهٌ مِن وجوهِ القُربِ منه والاجتماعِ به؛ لِما فيه مِن إمتاعِ حاسَّةِ السَّمعِ واللسانِ بأوصافِ المحبوبِ؛ الذي هو وسيلةٌ إلى حضوره بالقلبِ، فاذا فاتَ النَّظرُ إليه بالبصرِ.. لم يفُت التَّمتُّعُ به بالسَّمع والنَّظرُ إليه بالبَصيرة؛ كما قال بعضهم:

يا وارداً مِنْ أهيل الحيِّ يُخبرني ... عن جيرتي شنِّفِ الأسماعَ بالخبرِ
ناشدتكَ اللهَ يا راوي حديثهم ... حدِّث فقد نابَ سمعي اليومَ عن بصري

وللشيخِ الغوثِ سيدي أبي مَدين نفعنا الله به:

ونَحْيَا بِذِكْرَاكُمْ إِذَا لَمْ نَرَاكُمُ ... أَلَا إِنَّ تذْكَارَ الأَحِبَّةِ يُنْعِشْنا
فَلَوْلَا مَعَانِيْكُمْ تَرَاهَا قُلُوبُنَا ... إِذَا نَحْنُ أَيْقَاظٌ وَفِيْ النَّوْمِ إِنْ غِبْنا
لَمُتْنَا أَسَىً مِنْ بُعْدِكُمْ وَصَبَابَةً ... وَلكِنَّ فِيْ المَعْنَىْ مَعَانِيْكُمُ مَعْنا
يُحرِّكُنا ذِكْرُ الأَحَادِيْثِ عَنْكُمُ ... وَلَوْلَا هَواكُمْ فِيْ الحَشَا مَا تَحَرَّكْنَا

وقال ابن الجزَريِّ رحمه الله:

أَخِلَّايَ إِنْ شَطَّ الْحَبِيبُ وَرَبْعُهُ ... وَعَزَّ تَلَاقِيهِ وَنَاءَتْ مَنَازِلُهُ
وَفَاتَكُمُ أَنْ تُبصِرُوهُ بِعَيْنِكُمْ ... فَمَا فَاتَكُمْ بِالْعَيْنِ هَذِي شَمَائِلُهُ

ولذا قيل:

يا قومُ أُذنيْ لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ ... والأُذْنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا

الوجه السادس:

إنَّ ذِكرَ مَحاسنِه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.. يُحرِّكُ ما في القلوبِ مِنَ الحُبِّ السَّاكِنِ والشَّوقِ الكامِنِ، ويحصل مِن انشراحِ الصَّدرِ وتفريجِ القلب ما يناسب إجلاءَ تلكَ المَحاسن، وقد يغيبُ المُحبُّ عند ذِكر أوصافِ المحبوبِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ ولا سيَّما إنْ كان القارئُ حسَنَ الصَّوتِ وكانت قراءتُه على وجهٍ يثيرُ الخُشوعَ ويرقِّقُ القلوبَ كما هو المَطلوب، ويرحم اللهُ الشَّيخَ سيدي عبدَ الرَّحيم البُرعيَّ إذ قال:

وتَأْخُذُ قَلْبِيْ نَشْوَةٌ عِنْدَ ذِكْرِكُمْ ... كَمَا ارْتَاحَ صَبٌّ خَامَرَتْهُ خُمُورُ
أَصُومُ عَنِ الأَغْيَارِ قَطْعَاً وذِكْرُكُمْ ... سُحُورٌ لِصَوْمِيْ فِيْ الهَوَىْ وفُطُوْرُ
وَمَدْحُ رَسُولِ اللهِ أَصْلُ سَعَادَتِيْ ... أَفُوْزُ بِهِ يَوْمَ السَّمَاءِ تَمُوْرُ
نَبِيٌّ تَقِيٌّ أَرْيَحِيٌّ مُهَذَّبٌ ... بَشِيْرٌ لِكُلِّ العَالَمِيْنَ نَذِيْرُ
إذا ذُكِرَ ارْتَاحَتْ قُلُوبٌ لِذِكْرِهِ ... وَطَابَتْ نُفُوسٌ وانْشَرَحْنَ صُدُوْرُ

انتهى النقل(١)

(١) هذه الأوجه السِّتُّ من «**الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمَّدية**» للعلامة المحقق المحدث الصوفي سيدي محمَّد بن قاسم جُسُوس رضي الله عنه (ت: ١١٨٢ هـ)، بتصرُّف يسير.

الفصلُ الثاني:

قال سيِّدُنا العباسُ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه، عمُّ رسولِ الله صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ، وهو يمتدح رسولَ الله صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ، مشيراً إلى النُّورِ المُحَمَّدي الأوَّليِّ قبلَ خلقِ جسده الشَّريفِ الزَّكي صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ:

مِنْ قَبْلِها طِبْتَ فِي الظِّلالِ وفي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتَ البِلادَ لا بَشَرٌ أنتَ ولَا مُضْغَةٌ وَلا عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِيْنَ وَقَدْ أَلْجَمَ نَسْراً وأهْلَهُ الغَرَقُ
وَرَدْتَ نارَ الخَلِيلِ مُكْتَتَماً فِي صُلْبِهِ أَنتَ، كَيْفَ يَحْتَرِقُ؟!
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إلى رَحِمٍ إِذَا مَضَىٰ عَالَمٌ بَدا طَبَقُ
حتَّى احْتَوَىٰ بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِنْ خِنْدِفَ عَلْياءَ تَحْتَها النُّطُقُ
وأنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الـ ـأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّياءِ وفِي النْـ ـنُورِ، وسُبُلَ الرَّشادِ نَخْتَرِقُ[1]

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤١٦٧) ما خلا قوله:

وَرَدْتَ نارَ الخَلِيلِ مُكْتَتَماً في صُلْبِهِ أنتَ، كيف يَحتَرِقُ؟!

وأخرج الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» رقم(٤٢٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إِنَّ قُرَيْشاً كَانَتْ نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بألفي عام، يسبح ذَلِكَ النُّورُ فَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ جَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُلْبِ آدَمَ، فَجَعَلَهُ فِي صُلْبِ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقُذِفَ فِي النَّارِ فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَزَلْ يَنْقِلُنِي مِنْ أَصْلَابِ الْكِرَامِ إِلَى الْأَرْحَامِ، حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ أَبَوَيَّ، لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ» .

أطبَقَ ذوقُ أهلِ الله رضي الله عنهم على أنَّ حقيقتَهُ صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ.. مُبتَدأ الوجودِ، وأنَّ السِّيادةَ له على كلِّ موجود، وأنَّه خليفةُ الله على التَّحقيق؛ إذ هو البرزخُ الجامِعُ لِطَرَفَي الوجودِ والعَدم، والحدوثِ والقِدم.

واستدلَّوا بالنُّصوص على هذا الشَّرَفِ المَخصوص، لكن الغالبُ منها ليس صريحاً في الدِّلالة؛ إلَّا لأهل الأذواقِ أهلِ القلوبِ الصَّحيحة، أو لذوي العقول مِن أهلِ صفاءِ القريحة.

فهذا قاضي القضاة الإمامُ تقيُّ الدِّين السُّبكي رضي الله عنه.. استنبطَ مِنَ النُّصوصِ -بقريحتِه الوقَّادة- أسبقيَّةَ حقيقتِهِ ﷺ وأنَّ لهُ عِزَّ السِّيادة، وذلك في رسالتِهِ «**التَّعظيم والمِنَّة**» في شرح قول الله تعالى: ﴿**لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّه**﴾[(١)]؛ **إذ قال فيها رحمه الله تعالى:**

ويَكُونُ قَولُهُ ﷺ: «**بُعِثْتُ إلَى النَّاسِ كَافَّةً**»[(٢)].. لا يَخْتَصُّ به النَّاسُ من زَمَانِهِ إلَى يومِ القيامةِ؛ بل يتناولُ مَن قبْلهُم أيضاً.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ مَعنَى قَولِهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ: «**كُنت نَبِيًّا وَآدَمُ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**»[(١)]، وَإِنَّ مَن فَسَّرَهُ بِعلم اللَّهِ بِأَنَّهُ سَيَصِيرُ نَبِيًّا.. لم يَصِل إِلَى هَذَا المعنَى؛ لِأَنَّ عِلمَ اللَّهِ.. مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الأشياءِ.

وَوَصفُ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ بِالنُّبُوَّةِ فِي ذَلِكَ الوَقتِ.. ينبغي أَن يُفهَمَ مِنهُ أَنَّهُ **أَمرٌ ثَابِتٌ لَهُ فِي ذَلِكَ الوَقتِ**؛ ولِهذا رَأَى اسمَهُ آدمُ مَكتُوباً علَى العَرشِ: (مُحَمَّد رَسُولُ اللَّهِ)؛ فَلَا بُدَّ أَن يَكُونَ ذَلِكَ مَعنًى ثَابِتاً فِي ذَلِكَ الوَقتِ.

وَلَو كَانَ المُرَادُ بِذَلِكَ مُجَرَّدَ العِلم بِمَا سَيَصِيرُ فِي المُستَقبَلِ.. لم يَكُن لَهُ خُصُوصِيَّةٌ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ وَآدَمُ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الأنبياءِ.. يَعلمُ اللَّهُ نُبُوَّتَهُم فِي ذَلِكَ الوَقتِ وَقَبلَهُ، فَلَا بُدَّ من خُصُوصِيَّةٍ لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ لِأَجلِهَا أَخبَرَ بِهَذَا الخَبَرِ؛ إعلَاماً لِأُمَّتِهِ لِيَعرِفُوا قَدرَهُ عِندَ اللَّهِ، فَيَحصُلُ لَهُم الخَيرُ بِذَلِك.

---

(١) رواه أحمد، والبخاري في «تاريخه»، وأبو نُعيم في «الحلية» وصحَّحه الحاكم. وأمَّا ما اشتهر على الألسن بلفظ: (**كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين**).. فقال شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة»: لم نقف عليه بهذا اللفظ. انتهى من «المواهب اللدنيَّة» (ص٤٠-٤١).

فإن قُلتَ: أُرِيدُ أَن أَفهَمَ ذَلِكَ القَدْرَ الزَّائِدَ؛ فَإِنَّ النُّبُوَّةَ وَصفٌ لَا بُدَّ أَن يَكُونَ الموصُوفُ بِهِ مَوجُوداً، وَإِنَّما يَكُونُ بَعدَ بُلُوغِ أَربَعِينَ سَنَةً أَيضاً، فَكَيفَ يُوصَفُ بِهِ قَبلَ وُجُودِهِ وَقَبلَ إِرسَالِهِ؟ فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَغيرُهُ كَذَلِكَ!

قُلتُ: قَد جَاءَ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الأَروَاحَ قَبلَ الأَجسادِ**»(١)؛ فَقَد تَكُونُ الإِشارة بِقَولِهِ: «كُنتُ نَبِيًّا».. **إِلَى رُوحِهِ الشَّرِيفَةِ ﷺ وَإِلَى حَقِيقَتِهِ؛ وَالحَقَائِقُ تَقصُرُ عُقُولُنَا عَن مَعرِفَتِهَا؛ وَإِنَّما يَعلمهَا خَالِقُهَا وَمَن أَمَدَّهُ بِنُورٍ إِلَهِيٍّ.**

ثُمَّ إِنَّ تِلكَ الحَقَائِقَ.. يُؤتِي اللَّهُ كُلَّ حَقِيقَةٍ مِنهَا مَا يَشَاءُ فِي الوَقتِ الَّذِي يَشَاءُ، فَحَقِيقَةُ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قَد تَكُونُ مِن قَبْلِ خَلقِ آدَمَ آتَاهَا اللَّهُ ذَلِكَ الوَصفَ؛ بِأَن يَكُونَ خَلَقَهَا مُتَهَيِّئَةً لِذَلِكَ، وَأَفَاضَهُ عَلَيهَا مِن ذَلِكَ الوَقتِ فَصَارَ نَبِيًّا، وَكَتَبَ اسمَهُ عَلَى العَرشِ وَأَخبَرَ عَنهُ بِالرِّسَالَةِ؛ لِيُعلِمَ مَلَائِكَتَهُ وَغَيرَهُم.. كَرَامَتَهُ عِندَهُ، فَحَقِيقَتُهُ مَوجُودَةٌ مِن ذَلِكَ الوَقتِ، فَإِنَّ تَأَخُّرَ جَسَدِهِ الشَّرِيفِ المتَّصِفِ بِهَا، وَاتِّصَافَ حَقِيقَتِهِ بِالأَوصافِ الشَّرِيفَةِ المفَاضَةِ عَلَيهِ مِن الحَضرَةِ الإِلهِيَّة.. حَاصِلٌ مِن ذَلِكَ الوَقتِ. انتهى(٢)

---

(١) الحديث فيه مقال، وقال عنه العجلوني في «كشف الخفا» (ج١/ ١١٢): (ضعيف جداً)، وقال ابن عبد البر في «الاستذكار»(ج٨/ ٣٨٨) في قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ }: قال إسحاق [بن راهويه]: "أجمع أهلُ العلم أنَّها الأرواح قبل الأجساد" اهـ.

(٢) «التعظيم والمنَّة» (ص٨٥-٨٨) للإمام تقي الدين السبكي رحمه الله.

وقال فيها أيضاً رضي الله عنه:

فَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ؛ فَالنَّبِيُّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ هُوَ **نَبِيُّ الأنبياءِ**؛ وَلِهَذَا ظَهَرَ ذَلِكَ فِي الآخرةِ جَمِيعُ الأنبياءِ تَحتَ لِوَائِهِ، وَهُوَ فِي الدُّنيَا كَذَلِكَ لَيلَةَ الإسراءِ صَلَّى بِهِم.

قال: فَنُبُوَّتُهُ عَلَيهِم وَرِسَالَتُهُ إِلَيهِم.. مَعنًى حَاصِلٌ لَهُ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.

قال: وَبِهَذَا بَانَ لَنَا مَعنَى حَدِيثَينِ خَفِيَا عَنَّا:

أَحَدُهُمَا: قَولُهُ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ: «**بُعِثت إِلَى النَّاس كَافَّةً**» كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ مِن زَمَانِهِ إِلَى يومِ القِيَامَةِ؛ فَبَانَ أَنَّهُ جَمِيعُ النَّاس أَوَّلُهُم وَآخِرُهُم.

وَالثَّانِي: قَولُهُ صلَّى الله علَيهِ وسَلَّمَ: «**كُنت نَبِيًّا وَآدَمُ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**»[1] كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ بِالعِلم؛ فَبَانَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَلَى ذَلِكَ عَلَى مَا شَرَحنَاهُ . انتهى باختصار[2]

(١) سبق تخريجه.

(٢) «التعظيم والمنَّة» (ص٩٠-٩١).

قلتُ: وإنَّما نقلنا هذا الكلامَ تأنيساً للضُّعفاء؛ فإنَّ غالب النُّفوس.. لا تُسلِّم لكلام العارفينَ مالَم تنظُر في الدَّليل، والحقُّ أنَّ إنشاء هذه الرِّسالة.. ليس لسردِ الأدلَّة؛ وإنَّما -كما قدَّمنا- لنقلِ ما يقولُه عرفاءُ هذه المِلَّة لِمن يبحث عن معاني كلماتِهم، ويُسَلِّمُ لأذواقهم وتحقيقاتِهم؛ لكنْ قد يَعرض لنا في الكلام ما ليس مِن أصل المَرام، والله الموفِّق للتَّمام.

❁ ❁ ❁

الفصلُ الثَّالث:

قال الشيخ العارف عبدُ الكريم الجِيليُّ رضي الله عنه:

إنَّ في كلِّ صفةٍ مِن صفاتهﷺ الخَلقيَّةِ والخُلُقيَّةِ.. أسراراً جليلةً، ومعانيَ جميلةً لا يمكنُ شرحُها.

ومجمل ذلك: أنَّ هيئتَهُ الصُّوريَّةَ الظَّاهرةَ الهيكليَّةَ.. أمٌّ لصور الكمالاتِ الحسيَّةِ الوجوديَّةِ العلويَّةِ والسُّفليَّةِ. وهيئتَهُ المعنويَّةَ الباطنةَ -التي هي عبارة عن أخلاقه-.. هي أمٌّ لمعاني الكمالاتِ المعنويَّةِ الوجوديَّةِ العلويَّةِ والسُّفليَّةِ.

فكلُّ كمالٍ تَشهدُهُ بالمحسوساتِ.. فهو مِن فيضِ صورتهِ الظَّاهرةِ، وكلُّ كمالٍ تَعقِلُهُ مِن المعنويَّاتِ.. فهو مِن فَيضِ معانيهِ الباطنةِ.

فهو في المَثَلِ: مَعدِنُ كمالاتِ العالَمِ -باطِنِها وظاهِرِها-؛ فمحسوساتُ العالَم.. تستَمِدُّ مِن ظاهرِهِ، ومَعقولاتُ العالَم.. تستمدُّ مِن باطنهِ، فهو هَيولَى المعاني والصُّورِ الوجوديَّة. فعالَمُ الشَّهادةِ فيضُ ظاهرِهِ، وعالَمُ الغَيبِ فيضُ باطنِهِ، وغيبُ الغَيبِ عبارةٌ عن حقيقتهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. انتهى[١]

---

(١) «الكمالات الإلهية» (ص١١٧).

قلتُ: وسيأتي في أواخرِ هذه الرِّسالة عند الكلام عن صورته الحسيَّة وطِينته القدسيَّةﷺ شرحٌ وبَسطٌ لهذا الكلام إن شاء الله تعالى[١].

قال الإمام العارف الكبير أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي رضي الله عنه في «**نوادر الأصول**»:

وَإِنَّمَا نَالَ الْمُؤْمِنُونَ مِن معرفَة مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وَسلَّم.. على قدْرِ معرفتِهم بِالله وعلْمِهم بِهِ؛ فَمَن صدَّق مُحمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم فِي الصُّحْبَةِ.. كَانَ صِدْقُ صُحْبتِهِ على قدْرِ مَعْرفَتِهِ إِيَّاه وَعلْمِهِ بِهِ.

قال: فأوفرهم حظّاً مِن نورِ الله: أوفرُهم عِلماً بمحمَّدٍﷺ، وقَدْرِهِ، وجلالَتِهِ، وخَطِيرِ منزلَتِهِ، **فأوفرهم علماً به**: أسرعُهُم إجابَةً لِدَعوتِهِ، وأبذَلُهُم لَهُ نَفْسَاً ومَالاً. انتهى[٢]

قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبِيَاء: ١٠٧] جَمعُ (عالَم)؛ وهو كلُّ موجودٍ سوى الله تعالى.

---

(١) في الفصل الرابع عشر من هذه الرسالة.

(٢) «نوادر الأصول» (٢/ ١٤٩).

فاللهُ سبحانه لَم يخُصَّ عالَماً دونَ عالَمٍ، ولا زماناً دون زمان، فدلَّ بهذا على أنَّه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. مُرسلٌ إلى العوالِم بأسرِها في كلِّ الأزمان، **مِن حيث نشأةُ حقيقتِه الأوليَّة العليَّة، ثمَّ روحانيَّتُه السَّنيَّة، ثمَّ صورتُه البشريَّة البهيَّة.**

فهذه النَّشآتُ الثَّلاثُ جامعةٌ للعوالِم؛ إذ هو صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ الفاتحُ الخاتم، والمُستفيضُ القاسِم، صلَّى الله على حقيقتِه العليَّة، وروحه السَّنيَّة وصورته البهيَّة، وعلى آله وأصحابه ووارثيه وأتباعهم بُكرةً وعشيَّة، آمين.

قال صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً**»(١).

قال الإمام أبو عبد الله الحكيم الترمذي رضي الله عنه: الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم.. مَبعوثٌ إلى الخَلق؛ بمنزلَةِ الأمير المُؤَمِّرِ، يُعطي الإمارةَ والولايةَ والرِّعايةَ؛ فهو بِمَنزلةِ الرَّاعي يَرعى غَنَمَهُ في مَراعيَ تَسْمَنُ عليها، ويُورِدُهم صَفْوَ الماءِ، ويرتادُ لَهم في الصَّيف مَشْتَاهم، وفي الشِّتاءِ مَصْيفَهم، ويُعِدُّ لَهم لكلِّ لَيلةٍ مَأوىً قبلَ هُجومِهِ(٢)، ويَفِرُّ بها عن مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ، ويُجنِّبها الأرضينَ

---

(١) قال الهيثمي في«مجمع الزوائد»(ج٨/ ٢٥٧) : رواه البزار، والطبراني في «الصغير» و«الأوسط» ورجال البزار رجال الصَّحيح. اهـ.

(٢) أي الليل.

الوَبِيئةَ، ويحرُسُها من السِّباع، ويَحُوْطُها عن الشُّذُوذ، ويَلْحَقُ شُذَّاذَها، ويَجْبُرُ كَسيرَها، ويُداوي مَريضها، ويَجمعُ رِسْلَها مِنَ الألبانِ والصُّوف لِرَبِّ الغَنَمِ.

قال: فكلُّ رَاعٍ مَؤنَتُهُ على قَدْرِ غَنَمِهِ، وكلُّ أميرٍ مَؤنَتُهُ على قَدْرِ رَعيَّتِهِ.

وقال رحمه الله: ومَن كانَ أميرَ المُؤمنينَ.. يحتاجُ إلى كنزٍ عظيمٍ، ومَنْ مَلَكَ المَشرِقَ والمَغرِبَ.. احتاج إلى خزائنِ الأموالِ؛ حتى يضبط بها ذلك المُلْكَ؛ فكذلك كلُّ رسولٍ بُعِثَ إلى قومٍ؛ أُعطِيَ مِن كنزِ التَّوحيدِ وجواهرِ المعرفةِ.. على قدرِ ما حُمِّلَ مِنَ الرِّسالَةِ؛ فالمُرسَلُ إلى قومِهِ في ناحيةٍ مِنَ الأرضِ.. إنَّما يُعطَى مِنَ النُّبوَّةِ والكُنوزِ على قَدْرِ ما يَقومُ بهِ مِن شأنِ نُبُوَّتِهِ ورِعايَةِ قومِهِ، والمُرسَلُ إلى جميعِ أهلِ الأرضِ كافَّةً -إنْسِها وجِنِّها- صلَّى الله عليه وسلَّم.. أُعطِيَ مِنَ المَعرفةِ بقدْرِ ما يَقومُ بها في شَأن النُّبوَّةِ إلى جميعِ أهلِ الأرضِ كافَّةً، فحَظُّنا مِنْ قولهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «**بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**»(١)، وقوله تعالى له ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سَبَإ: ٢٨].. كحظِّهِ مِنْ ولايَةِ مَلِكٍ يَملِكُ الدُّنيا وجواهِرَ شَرْقِها وغَرْبِها وما بَينَهما، ومَن مَلَكَ الأرضَ كلَّها.. مَلَكَ جواهرَها ومعادِنَها، ومَنْ مَلَكَ ناحيةً مِنَ الأرضِ.. ليسَ لَهُ إلَّا معدنُ ناحيتِهِ وجوهَرُ ذلكَ المعدِنِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤٤٨٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

ثم قالَ رضي الله عنه: ولَمَّا أُعطِيَ الرِّسالةَ إلى الكافَّةِ.. أُعطِيَ مِنَ الكُنوزِ مِقدارَ الكِفايَةِ للجميعِ، وأُوْتيَ مِنَ الحِكمَةِ وجواهرِها كُلَّها.

إلى أن قال: فمَن عَمِيَ قلبُهُ عن اللهِ ولَمْ يَكُنْ في قلبِهِ نُورُ الهدايَةِ.. لَمْ يُبْصِرْ آثارَ النُّبوَّةِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وإنَّما يُبْصِرُ منهُ شخصَهُ وجُثَّتَهُ! قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: ١٩٨].

ومَنْ هداهُ اللهُ تعالى لِنُورِهِ فانفَتَحَ عينُ قلبِهِ بذلك واستقرَّتِ المعرفَةُ في قلبِهِ.. أبصَرَ منه شَخْصَ النُّبوَّةِ بارزاً. انتهى(١)

نقل القاضي عياض رحمه الله عن **بعضِ العلماء** قوله: زيَّنَ اللهُ تعالى محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم بزينةِ الرَّحمة، فكان كونُه رحمةً، وجميعُ شمائله وصفاته رحمةً على الخَلق؛ فمَن أصابه شيءٌ مِن رحمتِه.. فهو النَّاجي في الدَّارَين مِن كلِّ مكروه، والواصِل فيهما إلى كلِّ محبوب، ألا ترى أنَّ الله تعالى يقول:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ﴾. انتهى(٢)

(١) «نوادر الأصول» (٢/ ١٤٦-١٤٩) للحكيم الترمذي رضي الله عنه، وقد نقلته ملخِّصاً.

(٢) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (ص١٦).

وقال الشَّيخُ سيِّدي أبو العباس المُرسي رضي الله عنه: جميعُ الأنبياءِ خُلِقوا مِنَ الرَّحمَةِ، ونبيُّنا صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. عَينُ الرَّحمةِ؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَاكَ إِلَّا رَحمَةً لِلعَالمينَ﴾. انتهى[(١)]

وقال سيِّدي العارفُ الكبير عبدُ الجليل القَصْريُّ رضي الله عنه[(٢)] في هذه الآية: فهو صلَّى الله عليه.. المرحومُ به العالَم؛ بنَصِّ هذه الآية.

ثم قال بعد بيان ذلك:

فإذا تَحقَّقتَ هذا كلَّه.. علمتَ أنَّه رحمةٌ للعالَمِين، وأنَّ كلَّ خيرٍ ونورٍ وبَركةٍ شاعَتْ وظَهَرَتْ في الوجود وتَظْهَرُ مِن أوَّل الإيجادِ إلى آخره.. إنَّما ذلك بسببه صلَّى اللّهُ علَيهِ وسَلَّمَ. انتهى[(٣)]

وقال بعضُ العارفين رضي الله عنهم: لَمَّا كان خُلُقُهُ أعظمَ خُلُقٍ.. بعَثَهُ اللهُ إلى جميع العالَمين، وخُلُقُهُ صلَّى اللّهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. لم يكن باكتسابٍ؛ وإنَّما

---

(١) نقله سيدي ابن عطاء السكندري في «لطائف المنن» (ص٣٢).

(٢) هو العلامة الزاهد العابد، أبو محمد عبد الجليل بن موسى الأنصاري الأندلسي القصري(ت:٦٠٨هـ) من أهل قصر عبد الكريم. **روى عن**: أبي الحسن بن حنين، وفتح بن محمد المقرئ. وكان متقدماً في علم الكلام، مشاركاً في فنون، عمل «تفسير القرآن»، وكتاب «شعب الإيمان»، وكتاب «المسائل والأجوبة» وأشياء، كان صاحب زهد وتبتُّلٍ. انظر «سير أعلام النبلاء» (ج٢١/ ٤٢٠).

(٣) «شعب الإيمان» (ص٤٨٧) للعارف عبد الجليل القصري رضي الله عنه.

كان في أصل خِلقته بالجودِ الإلهيِّ والإمدادِ الرَّحمانيِّ الذي لم تزل تُشرِقُ أنوارُه في قلبِهِ إلى أنْ وصلَ لأعظم غايةٍ وأتمِّ نهايةٍ. انتهى[١]

❁ ❁ ❁

(١) «الأنوار القدسية في شرح القصيدة الهمزية» (ص ١٤١-١٤٠) لسيدي ابن عجيبة رضي الله عنه.

الفصلُ الرَّابع:

وقال القطبُ عبدُ الله المَحجوب الميرغنيُّ رضي الله عنه[1] في «**نفحاته القدسية**» لدى قول العارفِ ابن مشيش رضي الله عنه في صلاته المشهورة: (**فَلَمْ يُدرِكْهُ مِنَّا سابِقٌ ولا لاحِقٌ**) ما نصه:

اعلم أنَّ مِن أعظم الواجبات على كلِّ مُكلَّف:

أنْ يتيقَّنَ: أنَّ كمالاتِ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لا تُحصى، وأنَّ أحوالَه وصفاتِه وشمائلَه لا تُستقصى، وأنَّ خصائصَه ومعجزاتِهِ لَمْ تَجْتَمع قطُّ في مخلوق، وأنَّ حقَّه على الكُمَّلِ -فضلاً عن غيرهم- أعظَم الحقوق، وأنَّه لا يقوم ببعضِ ذلك.. إلَّا مَن بذلَ وسعَهُ في إجلالِهِ وتوقيره وإعظامِهِ، واستجلاءِ مناقبِهِ ومآثرِه وحِكَمِهِ وأحكامِهِ، وأنَّ المَادحينَ لجنابِهِ العليِّ، والواصفينَ لكماله الجَليِّ.. لمْ يصِلوا إلى قُلٍّ مِن كُلٍّ لا حدَّ لِنهايتِهِ، وغَيضٍ مِن فَيضٍ لا وصولَ إلى غايتِهِ؛ **بل في الحقيقة**: لَم يمدحوه بوصفٍ.. إلَّا بحسب فهمهم

---

(١) محمد عثمان بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله الميرغني المحجوب الحنفي الحسيني (ت: ١٢٦٨هـ): مفسر، ولد بالطائف، وتعلم بمكة، وتصوف ونشر الطريقة الميرغنية في الحجاز. وانتقل إلى مصر فدخل منفلوط وأسيوط، ثم قصد السودان فأكرمه أهلها وأخذوا عنه الطريقة الميرغنية. وتوفي بالطائف. من آثاره «تاج التفاسير لكلام الملك الكبير». انظر «معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» (ج٢/ ٥٧٤) لعادل نويهض.

ذلك، وجلَّتْ أوصافُهﷺ أنْ تكونَ إلَّا مِن وراءِ ما هنالِك؛ **فوصْفُ العجزِ والتَّقصير.. عمَّ الجَليلَ والحَقير،** وهو حقيقةُ الإدراكِ والعِرفان عند العارفين ذوي الشَّأن؛ ولذا قال أفضلُهم على التَّحقيق سيِّدُنا أبو بكر الصِّدِّيق به: "**العجزُ عن دَرْكِ الإدراكِ.. إدراكٌ**". انتهى(١)

وفي «**الرَّوضات العرشيَّة في الكلام على الصَّلوات المَشيشيَّة**» لسيِّدي مصطفى البكري رضي الله عنه(ت:١١٦٢هـ)، لدى قول العارف ابن مشيش قدس سرُّه: (**فأعجزَ الخلائقَ**) ما نصُّه:

اعلم أنَّ نبيَّنا ﷺ **لَمَّا كان** مُستوعِباً سائرَ الكمالاتِ الظَّاهرة والباطنةِ، **وكان** هيكلُه الظَّاهرُ لنا **أصلَ** كلِّ كمالٍ حسِّيٍّ ظاهرٍ، ومعناهُ الباطنُ **أصلَ** كلِّ كمالٍ غيبيٍّ باطنٍ، **وكان** الكمالُ الظاهرُ مِن فَيضِ صورتِهِ الظَّاهرةِ، والباطنُ عن فيضِ معانيه الباطنةِ.. **عَجَزَ** الواصفونَ عن وصفِ صِفةٍ مِن صفاتِهِ على الكمال، **وأقرُّوا** بعدمِ المَعرفة له مِن مَعرفته بما هو عليه مِن الجلال والجمال.

ولأنَّه جامعٌ لِمحاسن الأخلاقِ -لا على وصف التَّقاييد؛ بل على وصف الإطلاق، ولم تكن أخلاقُه كسبيَّةً؛ بل جبلِّيَّةً ضروريَّةً-.. فما اتَّصفَ متَّصفٌ

(١) «النَّفحات القدسيَّة» (ص١٠٧) ضمن «مجموع الرسائل الميرغنية».

بصفةِ كمالٍ على الكمالِ كاتِّصافِه، ولا اغترفَ مُغترفٌ مِن بحرِ المعرفةِ كاغترافِهِ، فكلُّ صفةٍ مِن صفاته.. خصَّها الإلهُ بالوسع الإلهيِّ؛ فلا تدخلُ تحت قيدِ حصرٍ ولا تَناهي.

ولَمَّا تخلَّقَ باسمه تعالى الواسعِ.. وسِعَ العالَمِين كلَّه ذاتاً وخُلُقاً، وأدرَك أسرارَ الكائناتِ على التَّفصيل حقّاً وطِبْقاً.

فلمْ يَصِفْ واصِفٌ صِفَةً مِن صِفاتِه.. فبلغَ ثُلُثَيْ عُشْرِها ولا أنصَفَ. ولا مَدَحَ مادِحٌ وبالَغَ.. إلَّا وقيلَ فيه: ما أنصفَ. ولو اعترفَ بالعجزِ والقُصورِ عن ارتقاءِ هذه المَعالي والقُصور.. كان في فعله مُصيباً، ونالَ مِن معرفة ذلكَ نصيباً.

قال سيِّدي مُحَمَّد البكري قدَّس الله سرَّه[١]، في «**صلواته النبوية**»:

"مَنْ غايةُ المُجِدِّ الجادِّ[٢] في الثَّناءِ عليه.. الاعترافُ بالعجزِ عن اكتناهِ صفاته. ونهايةُ البليغِ المُبالِغِ.. ألَّا يصلَ إلى مَبالِغِ الحمد على مكارمه وهِباته".

(١) هو: سيدي العارف محمد بن أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البَكْري الصدّيقي(ت: ٩٩٤ هـ) ، أبو المكارم شمس الدين، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال سيدي عبد الوهاب الشعراني في «طبقاته الصغرى» (ص١٠٥): (فهو بكري بيقين، وأبو بكر لا يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا يفارق الظلُّ الشاخِصَ، ومن كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزلةٍ.. لا تحصى مناقبه) انتهى

(٢) في النسخة المطبوعة من «الصلوات البكرية»: (المُجيد) بدل: (الجاد).

وأنشد البوصيريُّ في «**البردة**» قوله:

فَمَبْلَغُ العِلمِ فِيْهِ أَنَّهُ بَشَــرٌ   وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

أي: غايةُ عِلم الخلائقِ فيه ما ذُكِرَ، وثَمَّ ما لاتصِلُ إليه أفهامُهم، ولا تتعلَّقُ به أوهامُهم؛ لأنَّ العقولَ قاصرةٌ -غيرُ باصِرَة- معقولةٌ، وعُرى التَّحقيقِ في هذا المَقامِ.. غيرُ مشدودةٍ؛ بل مَحلولَة. انتهى[(١)]

وقال السَّيد مُحَمَّد جعفر الكتاني رضي الله عنه في كتابه «**جلاء القلوب**»:

والواصفون لذاته الشَّريفةِ -ممَّن تقدَّمَ أو تأخَّرَ مِن البُلَغاءِ والشُّعراءِ وأربابِ العشقِ والمحبَّةِ وغيرِهم- وإنْ بالغوا وأكثروا وتفنَّنوا.. لَمْ يصِلوا لتصوير كُنهها وما هي عليه في نفسها؛ لعدمِ عِلمهم بذلك.

والمعبِّرون عنها -وإنْ عبَّروا وأطنَبوا-.. فما أعربوا عنها ولا قاربوا؛ لقصور العباراتِ كُلِّها في جميع الُّلغات عن الوفاءِ بما هنالك.

والرَّاعون لها والنَّاظرون في أحوالها وشؤونها وأخبارها -وإنْ أدركوا لَوَائِحَها وصُوَرَها-.. لَمْ يدركوا شيئاً مِن حقائقها؛ لعجزهم عن الحقيقة.

---

(١) انتهى كلام سيدي مصطفى البكري رضي الله عنه من «الرَّوضات العرشيَّة في الكلام على الصَّلوات المشيشيَّة» كما نقله بطوله العلامة محمد جعفر الكتاني في «جلاء القلوب» (ج٢/ ١٥٧-١٥٩) رضي الله عنهما.

والمُعدِّودون لكمالاتهِ وصفاتهِ.. لَمْ يبلُغوا عُشْرَ المِعشار مِن عُشْرِها؛ لعدم إحاطتهم بها، وعدمِ انتهائها حقيقةً.

والمُمثِّلون لها والمُقرِّرونَ لحُسنها وكمالِها.. لَمْ يُمثِّلوا وصفاً واحداً منها على ما هو به مِن التَّمام والكمالِ؛ لعدم معرفتهم بما هي عليه من الجلال والجمال.

وغايةُ ما حصلَ للكلِّ: كغايةِ ما يحصل لِمَن ينظر إلى النُّجوم في السَّماء، أو يراها في الماءِ، فإنَّهُ إنَّما يدركُ شيئاً مِن صوَرها الحاكيةِ لِمباديها دون حقائقها، ودون ما هي عليه مِن الكِبَرِ والاتِّساعِ، ودون ما فيها مِن الضَّوء المَالِئِ للأصقاع!

ولذا يشيرُ البوصيريُّ في «**هَمزيَّته**» بقولهِ:

إنَّما مثَّلوا صِفاتكَ للنَّـ ـاسِ كَمَا مثَّلَ النُّجومَ المَاءُ

انتهى كلامُ سيدي محمد بن جعفر الكتانيِّ رضي الله عنه[1]

(١) «جلاء القلوب» (ج٢/ ١٥٦).

وقال ابنُ التِّلمساني رضي الله عنه[١] في حاشيته على الشِّفا «**المنهل الأصفى في شرح ما تمَسُّ الحاجة إليه مِن ألفاظ الشِّفا**»:

لم يقدِر أحدٌ على وصفِه حقيقةً، وما وَرَدَ في وصفِ ابنِ أبي هالةَ له.. إنَّما هو على جهةِ التَّمثيلِ تقريباً للسَّامع، وإلَّا فَكُلُّ وصفٍ يُعَبِّرُ به الواصِفُ في حقِّهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. فهو خارجٌ عن صِفَتِهِ، ولا يَعلمُ حسنَه وجمالَه إلَّا خالقَهُ تعالى. انتهى[٢]

❊ ❊ ❊

(١) هو محمد بن علي بن أبي الشرف الحسيني التلمساني(ت:٩٢١هـ)، قال عنه صاحب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية»: (الإمام المتفنن العلامة العمدة المحقق الفهّامة).

(٢) «جلاء القلوب» (ج٢/ ١٥٦).

الفصل الخامس:

لَعلَّكَ أدركتَ أيها الصَّفيُّ المُشتاق، والسَّالكُ طريقَ أهلِ الأذواق.. أنَّ السَّير إلى الحقِّ والتَّرقي في منازل القُرب.. إنَّما هو باتِّباع هذا السَّيد الأجلِّ الأعظم، والقاموسِ الأشرفِ الأفخم، صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.

وذلك أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. خليفةُ الله الأعظم، وصفيُّه الأكرم، وحبيبُه الأرفع الأعلم.

ولو أدركتَ معنى الخلافةِ.. لَسهُلَ عليكَ إدراكُ ما مضى وما سيأتي مِن أوصافه ونعوته إن شاء الله تعالى.

وسِرُّ ذلك: أن تعلمَ أنَّ ذاتَ الحقِّ مِن حيث هي ذاتٌ.. لا يمكن أن تُعرَف لا في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ فذاتُه جلَّ وعزَّ.. غيبٌ مطلقٌ؛ ولكنَّها معلومَة مِن حيثُ ظهورُها في المَرتبة الإلهيَّة، يعني ظهورها في مرايا الأسماءِ والصِّفات. وهذا أمرٌ معلومٌ محتَّمٌ عند أهلِ الله؛ فإنَّه لا يُمكن معرفةَ الحقِّ سبحانه.. إلَّا مِن خلال أسمائه وصفاته جلَّ في علاه.

ومِن هنا قالَ الشَّيخُ الأكبر رضي الله عنه:

وليست تُنال العَينُ في غيرِ مَظهرٍ

ولو هلكَ الإنسان مِن شدَّة الحرصِ[(١)]

ولا يوجَد محلٌّ جامعٌ لِظهور الأسماءِ والصِّفات.. أرفعَ وأجلَّ مِن حقيقة رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ؛ حيث إنَّه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. أعلمُ الخلقِ بالله وأعرفُهم به، وهذا يقتضي أنَّه حاز من معرفته بالأسماء والصِّفات.. مالَمْ يَحُزْه غيرُهﷺ؛ ولذا كان له المَقامُ المَحمود المُنفرد الذي لا ينبغي إلَّا له صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.

فكان صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ بهذا الاعتبار الجامعِ للأسماء والصِّفات الإلهية.. مَظهراً للذَّات.

ومِن هذا السِّر تعرفُ لمَ كان إطلاقُ الأسماءِ والصِّفات على الحقِّ جلَّ وعزَّ توقيفيّاً، **أي**: لا يصحُّ إلا بتوقيفٍ مِن الشَّارع صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.

ومعنى مشاهدة الحقِّ في مِرآته صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ: هو ما ذكرناه مِن أنَّهﷺ المَحلُّ الأوحدُ الذي تخلَّق بسائرِ الأسماءِ والصِّفاتِ؛ وهو معنى كونِهﷺ مَظهراً للذَّات، أو ما يُطلَق عليه بـ: **نور الذَّات**. هذا معنى الخلافة،

(١) «الفتوحات المكيَّة» (ج١/ ١٦٦).

حيث إنَّها ظهورُ الخَليفةِ بصورةِ مَن استخلفَه، ونعني أنَّه يكون متحقِّقاً ومتخلِّقاً بأسماءِ وصفات الله جلَّ وعزَّ.

وصلٌ:

لمَّا كان صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ أعرفَ الخلقِ بالله.. كان نصيبُه مِن تجلِّيات الذَّات أعظمَ نصيب، فليستِ المعرفةُ إلَّا معرفةَ ما لله مِن كمالٍ في شؤون الجمال والجلال.

وقد علمتَ أيُّها الصَّفيُّ المَحبوبُ أنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ لِمعرفتهِ، وأنشأهم للتَّقرب مِن حضرته بما اقتضاه الكمالُ الذَّاتيُّ في ألوهَتِهِ، وكانت النِّسبة بين الحقِّ والخلق معدومةً؛ لعجزِ استعدادِهم عن مُطالعةِ الكمالات الذَّاتيَّة مِن غير حِجاب فـ (**لو ظهرتْ صفاتُه.. اضمحلَّت مُكَوَّناتهُ**)[1]؛ إذ لا مناسبة بين الخَلق والخالق، فأنشأ جلَّ وعزَّ مِن تجلِّيه الذَّاتيِّ حقيقةً إمكانيَّةً خَلَعَ عليها حُللَ الأسماءِ والصِّفات، جامعةً للكمالات؛ حيث إنَّها مَجلى التَّجلِّيات.

وعَلمتَ أنَّ الكونَ بجملته إنَّما هو آثارُ أسماءِ الله وصفاته؛ فالكونُ إذاً نسخةٌ مِن الحقيقة المُحَمَّدية الجامعةِ للأسماء والصفات؛ إذ هي النِّسبة التي

(١) حكمة عطائيَّة انظر شرحها عند سيدي ابن عباد في «التنبيه» (ص٥٨٧).

ظَهَرَ بها الحقُّ لخلقه حتى عرَفوه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦] أي: يَعرِفون.

قال اللهُ سبحانه لنبيِّه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: ٤].

قال سيِّدي العارفُ المُحقِّق عبدُ الكريم الجيلي رضي الله عنه: **والخُلُقُ**: هو الوصفُ. **والأوصاف العظيمة**: هي أوصافُ الله تعالى. وسُئلت عائشة رضى الله عنها عن أخلاقِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: «**كان خُلُقُهُ القرآن**»(١). إشارةً إلى حقيقةِ التَّحقُّقِ بالكمالات الإلهيَّةِ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما هو عبارةٌ عن كمالاتِ الله تعالى، ولأنَّ القرآنَ كلامُ الله، والكلامُ صفةُ المُتكلِّمِ، وهو خُلُق مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ. انتهى(٢)

وقال سيِّدي شهابُ الدِّين السُّهرورديُّ رضي الله عنه: وفي قولِ عائشةَ رضي الله عنها: «**كان خُلُقُهُ القرآن**» سِرٌّ كبيرٌ، وعِلمٌ غامضٌ، ما نطقتْ بذلك إلَّا بما خصَّها الله به مِن بركة الوحي السَّماويِّ، وصُحبةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٦٠١) من حديث السيدة عائشة عليها السلام.

(٢) «الكمالات الإلهية» (ص٢٢٨).

إلى أن قال رضي الله عنه:

ولا يبعُدُ -والله أعلم- أنَّ قولَ عائشةَ رضى الله عنها: «**كان خُلُقُهُ القرآن**».. فيه رمزٌ غامضٌ وإيماءٌ خَفيٌّ إلى الأخلاقِ الرَّبانيَّة؛ فاحْتشَمَتْ مِن الحضرةِ الإلهيَّة أن تقول: (كان مُتخلِّقاً بأخلاق الله تعالى)؛ فعبَّرت عن المعنى بقولها: «**كان خُلُقهُ القُرآن**» استحياءً مِن سُبُحاتِ الجلال، وسَتراً للحالِ بلُطف المَقال؛ وهذا مِن وفورِ عقلِها وكمالِ أدبِها وفضلِها. انتهى(١)

قال الإمام القسطلانيُّ رضي الله عنه في تعليقه على قول السَّيدةِ عائشةَ رضي الله عنها:

فكما أنَّ مَعانيَ القرآنِ لا تَتناهى.. فكذلك أوصافُه الجميلةُ الدَّالَّةُ على خُلقه العظيم لا تَتناهى؛ إذ في كلِّ حالةٍ مِن أحواله يتجدَّدُ له مِن مكارمِ الأخلاق ومَحاسن الشِّيَمِ وما يُفيضه اللهُ تعالى عليه مِن معارفه وعلومه.. ما لا يعلمه إلَّا الله تعالى. انتهى(٢)

ثمَّ نقلَ عن العارف أبي الحسن الحرَّالي (ت:٦٣٧هـ) رضي الله عنه قولَه:

---

(١) «عوارف المعارف» (ج٢/ ٦-١٢).

(٢) «المواهب اللدنية» (ج٢/ ١٠٢).

فكلُّ مَن كان اللهُ ربَّه.. فمحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم رسولُه، وكما أنَّ الرُّبوبيَّةَ تعمُّ العالَمين.. فالخُلُقُ المُحمَّديُّ يَشملُ جميعَ العالَمين. انتهى

قلتُ: وممَّا قال العارف الحرَّاليُّ أيضاً في «**تفسيره**»:

القرآنُ باطنٌ، وظاهرُه محمَّدٌ؛ قالت عائشةُ رضي الله عنها: «**كان خُلُقُهُ القرآن**»؛ فمحمَّدٌ صورةُ باطنِ صورةِ القرآن؛ فالقرآن باطنُه وهو ظاهرُه ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣ - ١٩٤]. انتهى[(١)]

وقال الإمام ابنُ حجر الهيتمي رضي الله عنه، في «**أشرف الوسائل إلى فهم الشَّمائل**»:

فأوصاف خُلُقِه العظيم صلَّى الله عليه وسلَّم.. لا تَتناهى، كما أن معانيَ القرآن لا تَتناهى، وهذا غايةٌ في الاتِّساع لا ينتهي لانتهائِها، ومِن ثمَّة وَسِعَت أخلاقُه أخلاقَ هذا العالم؛ فلهذا أرسلَه اللهُ إلى الثَّقلَين الإنسِ والجنِّ، وكذا المَلائكةِ؛ بل وإلى كافةِ الخَلْق. انتهى[(٢)]

(١) انظر «تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير» (ص١٥٢).

(٢) «أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل» (ص٤٩٦).

وقال سيِّدي أبو الفيض محمَّد بنُ عبد الكبير الكتَّاني قدِّس سرُّه في «كشف البراقع بشرح أبيات: توضأ بماء الغيب»:

إذ هو صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ نسخةُ الوجودِ المُطْلَقِ، أعني بحيث يصيرُ ذلك خُلُقاً له على سبيل السَّرمديَّة.

ثم قال رضي الله عنه:

وعن هذا الذَّوقِ أفصَحتِ الصِّدِّيقةُ العُظمى لَمَّا سُئلَت: كيف كان خُلُقُهُ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ؟ **قالت**: كان خُلُقُهُ القرآن. انتهى[١]

❁ ❁ ❁

(١) «كشف البراقع بشرح أبيات: توضأ بماء الغيب» (ص٦).

الفصل السَّادسُ:

قد عرفتَ أيها الأريبُ الَّلبيب، والسَّالكُ المحبوبُ إلى حضرة الحبيب، بأنَّ هِمَّة المَددِ ومددَ الهِمَّة.. ناشئٌ مِن الحضرة القدسيَّة إلى القلوب الرَّاضية المَرضيَّة؛ بوساطة لوامع الأسماءِ وأنوارِ الصِّفات، وقد علمتَ كذلك أنَّ مجلاها الأعظمَ.. هو الحبيبُ المُكرَّم صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم؛ فما يأتيكَ مددُها إلَّا بواسطتِه، ولا يَسري إليك فيضُها إلَّا مِن أطايبِ مائدتِه؛ ولهذه الحقيقةِ أشارَ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ بقوله في الحديث المتَّفقِ عليه: «**فإنِّي إِنَّمَا جُعِلْتُ قاسِماً أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ**»[1]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَخَازِنٌ وَاللَّهُ يُعْطِي**»[2] وفي رواية الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**أَنا أَبُو القاسِمِ، اللَّهُ يُعْطِي وَأَنا أَقْسِمُ**»[3].

وليُعلَم بأنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى سمَّى النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ بأسمائه التي خَلَعها عليه، فألبسَه رِداءَها، وكساه بأسرارِها، وجلَّله بأنوارِها.. ليَظهر للخَلقِ مِرآةً للحقِّ؛ إذ لا دليل إلى الحقِّ إلَّا بسيِّد الخلقِ ﷺ.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣١١٤)، مسلم (٢١٣٣) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» باب قوله تعالى: { فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } [الأنفال: ٤١].

(٣) «المستدرك» (٤١٨٧) وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه) وسكت عنه الذهبي.

فالحقُّ سبحانه جعلَ في الأرضِ خليفةً عنه، وذكَرَ أهلُ الله أنَّه: **لا معنى للخلافةِ إلَّا أنْ يَحمل الخليفةُ أسماءَ وصفاتِ مَن اسْتَخلفَه، يعني تخلُّقَهم وتحقُّقَهم بهذه الأسماءِ والصِّفات، وظهورَهم بآثارِها**، ومعلومٌ عند أهلِ الله ما يذكرونه مِن أنَّ المُطلَقَ إذا تجلَّى في المُقيَّد.. فالحُكم للمُقيَّدِ. وشرحُ هذا مِن علوم المُكاشَفة كما ذكروا، ولا تحتمله هذه العُجالة، ولكنَّا أشرنا لها؛ لنلفِتَ إليها نظرَ المُطَّلعِ إلى علوم القوم رضي الله عنهم.

تنبيهٌ:

يجبُ التَّفريقُ بين تخلُّقِ الحادثِ وتحقُّقِهِ بأسماءِ الحقِّ سبحانه وتعالى، وبين أنْ يكونَ المُتخلِّقُ بها ذاتَها وعينَها فيكون قديماً! كما يظنُّ بعضُ المُتوهِّمينَ، فالمعنى الأوَّل صحيح، والثَّاني فاسدٌ مُستحيلٌ والقولُ به كفرٌ قبيح، والخَلطُ بينهما يؤدي إلى الهلاك، نسأل الله السَّلامة والعافية.

❁ ❁ ❁

الفصل السَّابع:

معرفةُ الواسطةِ والتَّأدبُ معه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. يقضي بازديادِ الأنوار، وحصولِ المَسرَّة وانكشاف الأسرار؛ إذ لولا الواسطةُ لَذَهَبَ -كما قيل- المَوسوطُ، ولولاها لَمَا انحلَّ عَقدُ العَدمِ المَربوط.

قال سيِّدي مُحَمَّد بهاء الدِّين الرَّواس قدَّس اللهُ سرَّه، عن معرفة الحقيقةِ المُحَمَّدية:

فالمَعرفَةُ بها حِصنُ الأمانِ والنَّجاح، وبابُ البرَكَةِ والفلاح، وطريقُ السِّتر والسِّيادة، وحَرَمُ السَّلامةِ والسَّعادة، ومنشورُ التَّرقِّياتِ في الدَّارين لأحسنِ وأشرفِ المَراتب، وهيكلُ العنايات والقوَّة والنُّصرة والعلوِّ على كلِّ مُظاهِرٍ ومُغالِب، وعدوٍّ وحاسدٍ ومُحارِب، وهي ميزابُ رحمة اللهِ، وسحابُ فيضِ كرم الله إن شاء الله. انتهى[١]

وقال سيِّدي مُحَمَّد جعفر الكتاني رضي الله عنه:

اعلم أنَّ أوَّلَ كلِّ شيءٍ برزَ عن الذَّات العليَّة الإلهيَّة -بمحض التَّخصيصِ الأزليِّ والعناية الرَّبانيَّة-.. نورُ سيِّدنا مُحَمَّد صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، الَّذي هو

---

(١) «زاد المسافر» (ص١٢) للشيخ عبد الحكيم عبد الباسط رحمه الله.

أصلُ كلِّ نور، وبه بانَ مِن الأسماءِ الإلهيَّة والصِّفات الذَّاتيَّةِ كلُّ بطونٍ وظُهور؛ فكان واسطةً بين الوجودِ الحقيقيِّ والعَدَم، ورابطةَ تَعَلُّقِ الحُدوث بالقِدم. انتهى[1]

قوله: «**وبه بانَ**»: أي ظَهَرَ مِن الأسماء والصِّفات «**كلُّ بطونٍ وظُهورٍ**»؛ لأنَّه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ مُتخلِّقٌ ومُتحقِّقٌ بالأسماء والصِّفات؛ فكان سبباً لِمعرفتِنا ببطونِ أسرارِ الذَّات، وظهورِ أنوارِ الأسماءِ والصِّفات، ولولاه لَمَا عرفنا هذا الأمر، وهذا هو المعنى الحقيقيِّ للنُّور فـ (النُّورُ لَهُ الْكَشْفُ)[2].

حيث إنَّ النُّورَ عبارة عمَّا تنكشفُ به الأشياء، ومِن هذه الحقيقةِ.. استُعير اسمُ النُّور للأنوار الحسِّيَّة والمعنويَّة؛ كالشَّمس والقمر وأمثالِهما للأنوار الحسِّيَّة، وكالعقل للأنوار المعنويَّة.

ففي الأنوار الحسِّيَّة.. تنكشِف ظُلمَةُ الأفياءِ، وفي المعنويَّة.. تُعرف معاني الأشياءِ بعد الخفاء، وعندما اشتركا في حقيقةِ الكشفِ عن أمرٍ ما.. سُمِّيا بالنُّور.

---

(١) «جلاء القلوب» (٣/ ٢٤٢).

(٢) حكمة عطائية، انظر «التنبيه» (ص٣٤٥).

فالنُّور على هذا النَّحو.. مراتبُ كثيرةٌ جداً، بعضها فوق بعضٍ، فنور الحسِّ يَقصُرُ عن نورِ العقلِ في كشفهِ، ونورُ العقلِ يَقصُرُ عن نور الشَّرعِ في نَقلِهِ، قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَا﴾ [التَّغَابُن: ٨]، وقال سبحانه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النِّسَاء: ١٧٤].

ونورُ الشَّرعِ إنَّما هو مِن النُّور الأوَّلِ جلَّ وعزَّ؛ الذي استمدَّت منه جميعُ الأنوار.

ونورُ الشَّرع لَمْ يُكشَف.. إلَّا بوساطة الرُّسلِ عليهم صلوات ربِّي وسلامه؛ فهم نورٌ إذاً، وأوَّلهم حقيقةُ رسولُ الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، التي بواسطتها ظهرت المَعارفُ الإلهيَّةُ والأسرارُ القدسيَّة.

ولو لم يكن أوَّلاً.. لَمَا تمَّتِ الخلافةُ؛ لأن معناها كما ذكرنا: الظهورُ بصورَة المُستَخلِف؛ تخلُّقاً وتحقُّقاً بالأسماء والصِّفات؛ ليفيض معانيها لمعرفة مبدع البريَّات في كلِّ الحالات وجميع الأوقات.

فلو لم تكن حقيقةُ الخليفةِ الكاملِ أوَّلَ موجودٍ.. لنقصت معرفةُ العبيدِ بالمعبود إلى حين وجودِ الخليفةِ الكاملِ؛ بل لَمَا صحَّت معرفةُ أحدٍ أصلاً قبل وجودِه؛ إذ منه تُقسَم المعارفُ حيث كان جامعاً لها ﷺ.

قال تعالى في وصفِ حبيبهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ بالنُّور: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ **نُورٌ** وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المَائِدَة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ **نُورًا** نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشُّورَى: ٥٢].

قال سيِّدي محمد بن جعفر الكتَّاني أيضاً:

هو أصلُ الأسبابِ وأوَّلُها، وأعلاها جِنساً وأكملُها، وليس له هو سببٌ إلَّا مَحض التَّخصيصِ الإلهيِّ والاختراعِ الأزليِّ، وهذا مِن أكبر خصوصيَّاته صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ؛ وهو أنَّه خُلِق عن الله بلا واسطةِ شيء، وخُلِق كلُّ شيءٍ بواسطته، واستمدَّ عن الله بلا واسطةِ شيءٍ، واستمدَّ كلُّ شيءٍ دونَه بواسطتِه، وخُلِقَت الأشياءُ كلُّها مِن أجلِه، وخُلِق هو مِن أجل مولاه. انتهى[1]

فالحقيقة المُحَمَّديَّة.. جوهرٌ إمكانيٌّ نُورانيٌّ جامعٌ لتجلِّيات الأسماءِ والصِّفات الإلهيَّة، التي ظهرَ أثرُها في صفحَات الأكوان، وفاض إمدادُها لسائر عالَم الإمكان، وتلألأ نورُ سناها في كمالِ خِلقة الإنسان.

(١) «جلاء القلوب» (ج٣/ ٢٤٧).

الفصل الثَّامن:

قال سيِّدي أحمد بن عجيبة الحسنيُّ قدِّس سرُّه في تفسيره «**البحر المديد**» عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزُّخْرُف:٨١]:

ففي الآية إشارةٌ إلى أسبقيَّتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، وأنَّه أوَّلُ تَجَلٍّ مِن تجلِّيات الحقِّ؛ فمِن نورِهِ انشقَّتْ أسرارُ الذَّات، وانفلَقت أنوارُ الصِّفات، وامتدَّت مِن نورِه جميعُ الكائنات. انتهى

وقال العارف **روزبهان البقلي** رضي الله عنه في تفسيرها أيضاً:

وإشارةُ أوليَّتهﷺ في عبوديَّة اللهِ.. إشارةٌ إلى بدوِّ وجودِه في إتيانه مِن العَدَمِ بنورِ القِدَمِ، وانقيادِه في أوَّلِ تَجلِّي جلالِهِ. انتهى(١)

قلتُ: **فالحقيقة المُحَمَّدية** منبعُ بُروزِ هذه الأسرار، ومعدنُ ظهورِ هذه الأنوار، فما مِن ذرَّةٍ إلَّا وهي تُسبِّحُ بحمد ربِّها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإِسْرَاء:٤٤] والتَّسبيح مُؤذِنٌ بالمَعرفة؛ إذ التَّسبيح.. تَنزيهٌ، والتَّنزيهُ: سَلْبُ النُّقصانِ؛ للمعرفة بعَظَمةِ الرَّحمن، وقد تقرَّر أنَّ المعرفةَ متعلِّقةٌ بأسمائه وصفاته سبحانه، وأنَّ حقيقةَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ.. هي الحقيقةُ

(١) «عرائس البيان» (ج٣/ ٢٨٤).

الجامعةُ لمعاني هذه الأسماء والصِّفات؛ فما عرف أحدٌ معنى مِن معانيها.. إلَّا بوساطة هذه الحقيقة المُحَمَّدية الجامعةِ لهذه المعاني.

إذاً: قد وسِع مَددُه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ الذَّرَّات، وأفاضَ على الجميع طريقَه الذي يسلكه إلى ربِّ البريَّات؛ لكنَّ القوابلَ اختلفت استعداداتُها بحسب شؤون الأزلِ المقَدَّر:

فمنهم من أصابه النُّورُ المُحَمَّديُّ وأبصره، فظهرت عليه معاني أسماء الجمال الإلهيِّ؛ فاهتدى.

ومنهم مَن أصابه النُّورُ المُحَمَّديُّ وعميَ عنه، فاحتوشته معاني أسماء الجلال الإلهيِّ؛ فوقع في الضَّلال والرَّدى.

فكان صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ الحقيقةَ التي بظهورها.. ظهرَ الجمالُ والجلالُ، والميزانَ الذي أبرزَ الحقُّ به حُكمَ الأزل وفقَ عِلمه القديم؛ وذلك فصلُ المقالِ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البَيِّنَة: ٤].

قال صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ: **«إن الله خلَقَ الخَلْقَ في ظُلمةٍ، ثُمَّ رَشَّ عليهم مِن نوره؛ فمَن أصابه ذلك النُّورُ اهتدى، ومَن أخطأه ضلَّ»**[1].

ولا شك بأنَّ هذا النُّورَ المَرشوشَ؛ إنَّما هو نورٌ مَخلوقٌ، وأُضيفَ إلى الله تعالى إضافةَ تشريفٍ؛ فإنَّ نورَ الله -الذي هو صفته- لا ينفصل ولا يتَّصل، وليس مُبعَّضاً ولا مُجزَّءاً؛ فالنُّور المذكورُ في الحديث.. نورٌ مخلوقٌ كما قُلنا، وكنَّى عن ظهورِهِ بالرَّشِّ، بينما ذكر أهلُ المعرفةِ بأنَّ الظُّلمةَ المذكورةَ.. هي ظُلمةُ العدم، فيكون المعنى:

إنَّ الله خلقَ الخلقَ في ظُلمَةٍ؛ أي: قدَّرهم وهُم في ظُلمةِ العَدم، ثُمَّ رشَّ عليهم مِن نورِ سيِّد الأُمَم؛ فأوجدَهم، حيث ظهرت أنوارُ الأسماءِ الصِّفات؛ فمَن أصابه فأبصره.. انشرحَ صدرُه وهو مِن المُهتدين، ومَن أخطأه فجهِلَه.. ضاقَ صدرُه وهو مِن الجاهِلِين المُبعَدِين.

قال سيِّدي ومولاي أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه، في **«البرهان المؤيَّد»**: خَلَقَ الخَلقَ في ظُلمةٍ، وتجلَّى وجودُ المحدِثِ لَهُ فيهِ.. بإيجادِهِ لَهُ

---

(١) قال في «الجامع الصغير» (٢٦٤٥): رواه الترمذي والحاكم وأحمد من حديث ابن عمرو رضي الله عنه.

نوراً؛ فلولا سريانُ نورُ وجودِهِ في العَالَم بأسرِهِ.. لم يَظهَر منه ظاهرٌ، وذلك الذي ظَهَرَ مِن نُورِه بمنزلَةِ الرَّشِّ. انتهى(١)

فمَن أراد الحقُّ هدايتَهُ.. بصَّره بنورِ رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ فاتَّبعه، ومَن أراد غوايتَه.. حَجَبَهُ عن نورِ رسولِ الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ فجَحَدَهُ.

قال الإمام العارف أبو عبد الله الحكيم التِّرمذيُّ رضي الله عنه:

فَمن عميَ قلبُه عَن الله وَلم يكن فِي قلبِهِ نورُ الهِدَايَةِ.. لَمْ يُبْصِرْ آثَارَ النُّبُوَّة على مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وَإِنَّمَا يبصر مِنْهُ شخصَهُ وجُثَّتَهُ، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وَمَن هَداهُ اللهُ تعالى لنورِهِ فانفتَحَ عينُ قلبِهِ بذلكَ واستقرَّتِ الْمَعرِفَةُ فِي قلبه.. أبْصرَ مِنْهُ شخصَ النُّبُوَّةِ بارزاً...

وَيرى على شخصِ النُّبُوَّةِ شخصَ الرِّسَالَةِ فائِقاً مِن الْجلَالِ والبَهاءِ والنَّزاهةِ والحَلاوةِ والطَّلاوةِ والمَلاحَةِ والمَهابةِ وَالسُّلْطَانِ، وأصلُ هَذَا كُلِّهِ من اليَقِينِ وَالحُبِّ والحياة. انتهى(٢)

---

(١) «البرهان المؤيد» (ص١٦١).

(٢) «نوادر الأصول» (٢/١٤٩).

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ولمَّا سُئِلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ عن هذا الشَّرح الذي يُصيب الصدرَ.. قال: «**هُوَ نُوْرٌ يَقْذِفُهُ اللهُ تَعالَىْ فِيْ القَلْبِ**» فقيل: وما علامته؟ فقال: «**التَّجَافِيْ عَنْ دَارِ الغُرُوْرِ، والإِنَابَةُ إِلَىْ دَاْرِ الخُلُوْدِ**»(١)

وقال **حجَّة الإسلام الغزالي** رضي الله عنه عن هذا النُّور:

هو الذي قال صلَّى الله عليه وسلَّم فيه: «**إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الخلْقَ في ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَليهم مِن نُورِهِ**» فمِن ذلكَ النُّور ينبغي أنْ يُطلَب الكَشفُ.

وذلك النُّور يَنبجسُ مِن الجود الإلهيِّ في بعض الأحايين، ويَجب التَّرصُّدُ له؛ كما قال عليه السَّلام: «**إنَّ لِرَبِّكُمْ فِيْ أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحاتٌ أَلَّا فَتَعَرَّضُوْا لَهَا**». انتهى(٢)

وقال **الإمامُ القُشيريُّ** رضي الله عنه في «**لطائف الإشارات**» عند قوله تعالى من (سورة الأحزاب): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «المنقذ من الضلال» (ص٥٥).

كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٨]:

(يا أيُّها) المُشَرَّفُ مِن قِبَلِنا.. **(إنَّا أرسلناكَ شاهداً)** بوحدانيَّتِنا، **(ومُبشِّراً)** تُبشِّر عبادَنا بِنا، [**ونذيراً**] تحذِّرُهم مُخالَفَةَ أَمرِنا، وتُعلمهم مواضعَ الخوفِ مِنَّا، **(وداعياً)** الخلقَ إلينا بنا **(وسراجاً منيراً)** يستضيئون بكَ، وشمساً ينبسط شعاعُك على جميع مَن صَدَّقَك وآمَنَ بكَ ولا يصل إلينا إلا مَن اتَّبعكَ وخَدَمَك وقَدَّمك **(وبَشِّر المُؤمنينَ)** بفضلنا عليهم، ونَيلِهم طَولَنا عليهم، وإحسانِنا إليهم، ومَن لَمْ تُؤثِّر فيهم بركةُ إيمانِهم بكَ.. فلا قَدْرَ لهم عِندَنا **(ولا تُطِعْ)** مَن أعرضْنا عنه وأضلَلناه مِن أهل الكُفرِ والنِّفاق، وأهلِ البدعِ والشِّقاق **(وتوكَّل على الله)** بدوامِ الانقطاع إليه **(وكفى بالله وكيلاً)**. انتهى[1]

❁ ❁ ❁

(١) كلام الإمام القشيري كما نقله سيدي ابن عجيبة في «البحر المديد» وفيه بعض اختلاف في بعض الكلمات في المطبوع من «لطائف الإشارات».

الفصلُ التَّاسع:

إنَّ الكلامَ عن رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. تَعرُّضٌ لأجَلِّ النَّفحَات، وتوسُّلٌ لأعظم الغايات، وبابٌ مفتوحٌ متَّصلٌ بسائر أبواب السَّعادات.

فاشغَل وقتَك بذكره وذِكرِ فضائلِه وفواضلِه، واستحضر القلبَ بالفكر في حقيقته وحسنِ شمائله.

وقد قلت على البديهة في هذا الموطن:

فإنَّ اشــتغالَ القلبِ بالحِبِّ موصِــلٌ	**إلى نفحاتِ القُدسِ في الحضرةِ الأَسنى**
فلا تَشغلَنْ هــــــــذا الفــــؤادَ بغيرِه	**عســــاكَ تجِدْ عند الفَنــاءِ به المَعنى**

إذ قد مرَّ بالخاطرِ كلامٌ يُخَطُّ بماء العَين، لغوث الثَّقلين ومَلجأ الفَريقين، سيِّدي أبي العباس أحمدَ الكبير الرِّفاعي قدَّس الله سرَّه؛ إذ يقول: (**الفناءُ فيه ﷺ بقاءٌ بالله**)[١]. ففي هذه الكلماتِ الشَّريفة العاليةِ.. اختصارٌ لطريقِ السُّلوكِ جميعِهِ؛ أوَّلِهِ وآخرِه، وظاهرِهِ وباطنِه.

حيث إنَّ البقاءَ بالله.. هو الغاية العظمى والمَقصدُ الأرفعُ الأَسمى، مِن حيث تحقُّقُ العبد بالعبوديَّة التي هي غايةُ الدِّين.

---

(١) «الكليَّات الأحمديَّة» (ص١٧٥).

والفناءُ به صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ.. لا يتأتَّى طريقُه إلَّا: بالانقطاعِ إليه، والاحتكامِ في كل الأمورِ لدَيه، والاستهتارِ بمحبَّته، والتَّعظيمِ لجنابه ولزومِ مودَّته، والتَّولُّهِ بذكره، والخضوعِ لنَهيه وأَمره. فكلُّ هذه أبوابٌ توصل العبدَ إلى الفناءِ به صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

قال سيِّدي أحمد بن عجيبة رضي الله عنه، في تفسيره «**البحر المديد**»:

أقسم بربوبيَّته على نفي إيمانِ مَن لم يرضَ بحُكم رسولهِ؛ فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً حقيقياً ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: يترافعوا إليكَ راضينَ بحكمك ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلط بينهم واختلفوا فيه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أي: ضِيقاً وشَكّاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾؛ بل تنشرحُ صدورُهم لحُكمِكَ؛ لأنه حقٌّ مِن عندِ اللهِ ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ لأَمرِكَ ﴿تَسْلِيمًا﴾؛ أي: ينقادوا لأمركَ ظاهراً وباطناً. انتهى

وقال رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٦ - ٦٨]:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ مِن طاعة الرَّسول والرِّضى بِحُكمِهِ.. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في آجلِهم وعاجلِهم ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ في دِينهم وقوَّةً في إيمانهم، أو تثبيتاً لثوابِ أعمالهم ﴿وَإِذًا﴾ لو فعلوا ذلك.. ﴿لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يَصِلونَ بسلوكهِ إلى حضرةِ القُدس، ودوامِ الأُنس، ويَفتح لهم أسرارَ العلوم، ومَخازنَ الفُهوم. انتهى

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه، في «**الرسالة**»:

وضعَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ مِن دِينه وفرضِه وكتابِه.. الموضعَ الذي أبانَ -جلَّ ثناؤه- أنَّه جعله عَلماً لدينه بما افترضَ مِن طاعته وحرَّمَ مِن معصيته، وأبان مِن فضيلته بما قرَن مِن الإيمان برسوله مع الإيمان به؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النِّسَاء: ١٧١]. **وقال**: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ

يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [النُّور: ٦٢]؛ فجعلَ كمالَ ابتداءِ الإيمان الذي ما سواه تبع له: الإيمانَ بالله ورسولِهِ. انتهى[١]

وجاء في **تفسير الإمام السُّلَمي** رحمه الله تعالى «**حقائق التفسير**» في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ [النِّسَاء: ٦٤]:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالإعراضِ عنَّا.. استشفعوا بكَ إلينا؛ لأقبلنا عليهم بالبِرِّ والفضلِ. انتهى

وقال **أيضاً** في الآية التي بعدها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النِّسَاء: ٦٥]:

قال بعضهم رحمه الله في هذه الآية: أظهرَ الحقُّ عزَّ وجلَّ على حبيبه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ خِلَعاً مِن خِلَعِ الرُّبوبيَّةِ؛ فـجَعلَ الرِّضا بحُكمهِ -سَاءَ أم سرَّ-.. سبباً لإيمان المؤمنين، كما جَعلَ الرِّضا بقضائه سبباً لإيقان المُوقنين، فأسقط

---

(١) «الرسالة»(ص٧٣).

عنه اسمَ الواسطةِ؛ لأنه متَّصفٌ بأوصاف الحقِّ عز وجلَّ، مُتخلِّقٌ بأخلاقِهِ، ألَّا ترى كيف قال حسَّانُ بن ثابت: "**فذُوا العرشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ**". انتهى[١]

قلتُ: أمَّا قوله: (**خِلَعاً مِن خِلَع الرُّبوبية**): ما أظهرَه عليه مِن مَظاهرها، ومنها الرُّجوعُ إليه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ في الحُكم والاحتكام، والفَصْلِ بالحقِّ بين الأنام.

قال العارف رُوزبهان البَقْلي قدَّس الله سرَّه في تفسيره «**عرائس البيان**» عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٨]:

جَعَلَ متابعةَ نبيِّهِ.. مفاتيحَ فواتحِ خزائنِ كنوزِ معارفِ ذاته وصفاته، أي: اتبعوه بنعتِ المَحبَّة ووصفِ الاقتداءِ بالسُّنَّة بغير المُخالَفة؛ لعلَّكم تُرشَدون إلى مُشاهدةِ أنوارِ الذَّات في الصِّفات، ومَساقي تجلِّي الصِّفات في الأفعال. انتهى[٢]

قلتُ: هذه النَّتيجةُ.. هي الفتحُ الأكبر، وهو معنى البقاء الذي ذكره سيِّدي أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه في كلمته التي نقلناها آنفا.

---

(١) مخطوط «حقائق التفسير» لوحة ٤٣ب، وفي المطبوع تصحيف (١/ ١٥٤).

(٢) «عرائس البيان» (ج١/ ٤٨٤).

الفصل العاشر:

قدَّمنا فيما سبقَ سُبُلَ الوصولِ إلى الفناء به صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، وأمَّا معنى الفَناءِ به صلَّى الله عليه وسلَّم:

فهو الذَّوقُ والمُشاهدةُ، والتَّحققُّ بأنَّه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. السِّرُّ الجامعُ الدَّالُّ على الله، كما قال العارفُ: (**اللهم إنَّه سرُكَ الجامع الدَّال عليكَ**).

فيشاهِد السَّالكُ –حين فنائه به صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ– أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام.. مِنه انشقَّتِ الأسرارُ وانفلقتِ الأنوارُ.

والأسرار: هي أسرار الذَّات الإلهيَّة، وأمَّا **الأنوار**: فأنوار الصِّفات السَّنيَّة.

وبهذا الطَّريقِ يُحفَظُ السَّالكُ مِن تخبُّطاتِ الأحوال؛ إذ الدَّليل فيها هو رسولُ الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، فكلَّما غلبَتكَ الأحوالُ.. ردَّك صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ إلى الاحتشامِ، وطوَّقكَ بمدادِ مَددِهِ فألزَمَكَ دوائرَ الالتزام، حيث تَردُّ كلَّ خطابٍ إليه، وتَعُدُّ كلَّ مُشاهدةٍ مِن فيضِ جودِ يَدَيه، وهذا هو الإكسير الذي في طوايا كلماتِ السَّيد الرِّفاعي الكبير، رضي الله عنه وأمدَّنا بإمداده، آمين.

وفي هذا **قال العارفُ المُحقِّق سيِّدي عبدُ الكريم الجِيليُّ** رضي الله عنه:

كلُّ وليٍّ يَحضُرُ بين يدَي رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ ولَمْ يصرفْ كلمةَ الحضرةِ الكماليَّةِ إلى رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم.. فإنَّه لا يبلغُ مرتبةَ الكمال. انتهى[1]

ومِن قَبله قولُ الشَّيخِ الأكبر محيي الدِّين رضي الله عنه:

واعلم أنَّ المَرائيَ مُختلفةُ الأشكال، وأنَّها تُصَيِّرُ المَرئيَّ عند الرَّائي بحسب شكلها؛ مِن طُولٍ وعرضٍ واستواءٍ وعِوَجٍ واستدارةٍ ونقصٍ وزيادةٍ وتعدُّدٍ، وكلِّ شيء يعطيه شكلُ تلك المِرآة.

وقد علمتَ أنَّ الرُّسلَ أعدلُ النَّاس مِزاجاً؛ لِقبولهم رسالاتِ ربِّهم، وكلَّ شخصٍ منهم قِبلَ مِن الرِّسالةِ قدْرَ ما أعطاه اللهُ في مِزاجه مِن التَّركيب، فما مِن نبيٍّ إلَّا بُعث خاصةً إلى قومٍ مُعيَّنين؛ لأنَّه على مِزاجٍ خاصٍّ مَقصورٍ، وأنَّ مُحَمَّداً صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم.. ما بعثَه اللهُ إلَّا برسالةٍ عامَّةٍ إلى جميعِ النَّاس كافَّةً، ولا قَبِلَ هو مِثلَ هذه الرِّسالة.. إلَّا لكونه على مزاجٍ عامٍّ يحوي على مزاجِ كلِّ نبيٍّ ورَسولٍ؛ فهو أعدلُ الأمزجةِ وأكملُها وأقومُ النَّشآت. **فإذا علمتَ هذا وأردت أن ترى الحقَّ على أكملِ ما ينبغي أن يظهرَ به لهذه النَّشأة الإنسانية**.. فاعلم أنَّك

(١) «الكمالات الإلهية» (ص١١٤).

ليس لكَ، ولا أنت على مثل هذا المِزاج الذي لمُحَمَّد صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، وقد علمتَ نزولَكَ عن الدَّرجةِ التي صحَّت لمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم في العلم بربِّه في نشأته؛ **فالزَمِ الإيمانَ والاتِّباعَ، واجعلهُ أمامَك مِثلَ المرآةِ التي تَنظرُ فيها صورتَك وصورةَ غيركَ.**

إلى أن قال رضي الله عنه:

فقد نصحتُكَ وأبلغتُ لكَ في النَّصيحة، واحذر أن تشهدَه في مرآتِكَ، أو تشهدَ النَّبيَّ -وما تجلَّى في مرآتِه مِن الحقِّ- في مرآتِكَ؛ فإنَّه يَنزلُ بك ذلك عن الدَّرجةِ العاليةِ.

فالزَم الاقتداءَ والاتِّباعَ، ولا تَطأ مكاناً لا تَرى فيهِ قدمَ نبيِّكَ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم، فضَع قدمكَ على قدمِهِ إنْ أردتَ أن تكون مِن أهل الدَّرجات العُلى والشُّهودِ الكامل في المكانة الزُّلفى، وقد أبلغتُ لكَ في النَّصيحةِ كما أُمِرتُ، وَالله يَهدِي من يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُستَقِيمٍ. انتهى(١)

ونسوقُ كلامَ سيِّدي أحمد الكبير الرفاعي قدس الله روحه، الذي بسطنا شذرةً منه فأسكرتنا، ولمعةً فأدهشتنا، وقطرةً فأغرقتنا؛ إذ كان كلامه الشَّريف

(١) «الفتوحات المكيَّة» (ج٣/ ٢٥١-٢٥٢).

على طِراز رفيع لطيف، حوى مِن المعاني من غير مِرا.. ما يقال فيه: كلُّ الصَّيدِ في جوفِ الفِرا.

فقال رضي الله عنه:

معرفةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.. بابُ معرفةِ الله؛ فمتى عرفَ العبدُ حقيقةَ نبيِّه.. عَرَفَ ربَّه.

ومعرفةُ حقيقتِهِ العظيمةِ لها طريقان:

طريقٌ لفظيٌّ: وهو المَنقولُ المَحفوظُ مِن سيرته، وخصاله وأحكام شريعته، وجليلِ شأنه.

وطريقٌ معنويٌّ: وهو سِرٌّ كشفيٌّ يُنتجه العملُ بأعماله، والقولُ بأقواله، والأخذُ الأكملُ في الحركات والسَّكنات بسنَّته، عليه مِن الله أشرفُ الصَّلاة وأكرم السَّلام.

والوقوفُ على حقيقةِ نورِهِ، والاطلاعُ على المَقام الجامعِ بين مَبطَنِهِ وظُهورِهِ.. هو عندي العِلمُ المُورَثُ اللَّدنِّيِّ الذي انطوت به جميعُ العُلوم،

وحارَتْ بدرْكه الفُهوم، وهو المَقصود مِن قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**من عمِلَ بما يعلَم ورَّثه اللهُ عِلم ما لَم يعلَم**»[1].

وَيْهِ على المَحجوبين الذين وقَفوا مع الظَّواهِرِ وما أدركوا سرائرَ الخفايا المَطويَّة في المَظاهر! هو يقول: «**كنتُ نبيّاً وآدم بين المَاء والطِّين**»[2]؛ دَرْكُ هذه الكينونة، وفهمُ مزيَّة النُّبوَّة، والاطِّلاعُ على نسجِ الصُّورة الآدميَّةِ.. قائمٌ بحقيقتِهِ، ومُعرِبٌ عن سرٍّ جامعٍ، وإلَّا فهو لا ينطقُ عن الهوى!

تلك إشاراتٌ خاصَّةٌ قامت مع البلاغ العامِّ، أين أهل الصَّوامع؟ أين أهل البِيَع؟ أين سكان القِفار؟ انقطعت حُجَّتُهم، وانفصَمت مَحجَّتُهم.

هذه نِكاتٌ مُحَمَّديَّةٌ في سُرادِقِ ألفاظٍ مُلْكيَّةٍ؛ تجمعُها حروفٌ صِيْغَت بمعانٍ قامَت بإيجازِها بلاغةُ سيِّد أهلِ البيان، برهانِ العقلاء، سلطانِ الأنبياء،

---

(١) قال الحافظ السيوطي في «الدرر المنتشرة» (ص١٩٢): [أخرجه] أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بهذا اللفظ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً: «**مَنْ تَعَلَمَ عِلْمَاً فَعَمِلَ بِهِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمْ**» وفي كتاب «رواية الكبار عن الصغار» لأبي يعقوب البغدادي عن سفيان: (مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وُفِّقَ لِمَا لا يَعْلَمُ). انتهى كلام السيوطي رحمه الله.

(٢) «**كُنت نَبِيًّا وَآدَمُ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**» رواه أحمد، والبخاري في «تاريخه»، وأبو نُعيم في «الحلية» وصحَّحه الحاكم. وأمَّا ما اشتهر على الألسن بلفظ: (**كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين**).. فقال شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة»: لم نقف عليه بهذا اللفظ. انتهى من «المواهب اللدنيَّة» (ص٤٠-٤١).

الذي أُوتيَ جوامعَ الكَلم، واستَودعَ سِلكَ الإرشادِ عقودَ هذا النِّظام المنتظِم، وهو سُلَّمُ الدُّنوِّ الرَّفيعِ النَّاهضِ بالضُّعفاءِ والأقوياءِ إلى الحضرة القدُّوسيَّة، وهناك لا بدَّ منه، ولا غنى عنه، كيف وقد قال له ربُّه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؟!

وكلُّ ما نوَّه به الصَّالحون؛ مِن التَّخلِّي والتَّجرُّدِ.. فهو فيما يؤولُ إلى حُكم تقديمِ العُبوديَّة المَحضةِ لله، لا فيما يؤول للتوسُّطِ والتَّوسُّلِ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ﴾ [لُقمَان: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المَائِدَة: ٣٥]، وهذا السَّيد العظيم.. وسيلةُ الوسائل، آمنَّا بالله وبرسوله، وكفى بالله وليًّا. انتهى النَّقل عن سيِّدي أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه[١].

فانظر أيها السالك المُريد، لكلام هذا العارف الفَريد، فقد حوى جملةَ الأسرار، وطريقَ سلوكِ الأبرار، وسبيلَ نهج الكبار!

ثم دقِّق في قوله الشَّريفِ:

(وكلُّ ما نوَّه به الصَّالحون مِن التَّخلِّي والتَّجرُّدِ.. فهو فيما يؤولُ إلى حُكم تقديم العُبوديَّة المَحضة لله، لا فيما يؤول للتوسُّطِ والتَّوسُّلِ).. تجد معنى ما

---

(١) «الكليَّات الأحمديَّة» (ص١٧٥).

ذكرناه آنفا عن الإمامَين -الشيخ عبد الكريم الجيلي والشيخ محيي الدين- فسيِّدي عبد الكريم الجيلي **قال**:

كل وليٍّ يحضر بين يدَي رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ ولم يصرف كلمةَ الحضرةِ الكماليَّةِ إلى رسول الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. فإنَّه لا يبلغُ مرتبةَ الكمال. انتهى

وسيِّدي الشَّيخُ الأكبر **قال**:

فلا تطلب مشاهدةَ الحقِّ.. إلَّا في مرآةِ نبيِّكَ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم. انتهى

فراجع كلامهم وتحقَّق مِن مَرامهم، وسلِ اللهَ لي ولكَ التَّحققَ بهذه الأذواق، فهي -واللهِ- سُلَّمُ كمالِ النَّجاةِ في الدُّنيا ويومَ التَّلاق.

❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر:

قال سيِّدي الإمام الرفاعي رضوان الله عليه:

سرُّ الولايةِ: مِرقاةٌ يصِل به الوليُّ إلى فهْمِ شأنِ النُّبوَّةِ، فيعرفُ عظيمَ قدْرِ النَّبيِّ؛ وبهذا يُعظِّم شأنَ ربِّه، ويخشعُ لِعزَّة سلطانه، ويقفُ ذليلاً منكسراً مُتحيِّراً.

النُّبوَّةُ: خِدرٌ مضروبٌ عليه سبحاتُ الجلال، منصوبٌ بين الخَلق والخالق، فيه مِن سلطان الله أمرٌ قائمٌ يَحكُمُ على كلِّ ذرَّةٍ مَخلوقةٍ في المُلك والمَلكوت ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النَّحل: ٣٥]، جزاهم الله خير الجزاء. انتهى كلامه الشَّريف المبارك(١).

وقال أيضاً في «**البرهان المؤيَّد**»:

أي سادة؛ عَظِّموا شأنَ نبيِّكم صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم، هو البرزخُ الوسَطُ الفارِق بين الخلق والحقِّ: عبدُ الله، حبيبُ الله، رسولُ الله، أكملُ خلق الله، أفضلُ رسُلِ الله، الدَّاعي إلى الله، المُخبِر عن الله، الآخذُ مِن الله، بابُ الكلِّ إلى الحظيرة الرَّحمانيَّة، وسيلةُ الكلِّ إلى الحظيرة الصَّمدانيَّة، ومَن اتَّصل به اتَّصل،

---

(١) انظر «لباب المعاني» (ص١١٢) للسيد محمد العبدلي البحريني الرِّفاعي رحمه الله.

ومَن انفصل عنه انفصل، قال صلوات الله وتسليماته عليه: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[1].

أي سادة؛ اعلموا أنَّ نبوةَ نبيِّنا صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ باقيةٌ بعد وفاته كبقائها حالَ حياته إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن علَيها، وجميعَ الخَلق مخاطبون بشريعتِهِ النَّاسخةِ لجميع الشَّرائع، ومُعجزاتِهِ باقيةٌ وهي القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسْرَاء: ٨٨].

أي سادة؛ مَن رَدَّ أخبارَه الصَّادقةَ.. كمَن ردَّ كلامَ الله تعالى، آمنَّا بالله، وبكتاب الله، وبكلِّ ما جاء به نَبيُّنا مُحَمَّدٌ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١١٥]. انتهى[2]

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنَّة» (١٥) من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً، وقال النووي في «الأربعين»: (حديث صحيح) انظر الحديث رقم (٤١).

(٢) «البرهان المؤيَّد» (ص٢٢).

قلتُ: ومَن استقرأَ كلامَ العارِفين في شأن سيِّد المُرسلِين صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم.. يجدِ أنَّ المَعنى المَطلوب والغرضَ المَرغوب: هو الوصول الأتمُّ لحضرة الحبيب المحبوب صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم.

ويَعلم عندها: أنَّ كلَّ إشارةٍ منهم إلى الحضرة القُدسيَّة، ظاهرةٍ أو مَطويَّة، صريحةٍ أو مَخفيَّة.. فإنَّما طريقها مِن كُوَّة الحقيقةِ المُحَمَّدية، وما لَمَعَ نورُ أيِّ طريق، ولا برزَ سرُّ أيِّ تحقيق.. إلَّا بعد انعكاسِ مِرآتِه الزَّكيَّةِ في قلوبهم الطَّاهرةِ النَّقيَّة.

والأذواقُ تختلفُ بحسب شهود هذه الحقيقة المُحَمَّديَّة صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم، وإنْ كانت واحدةً في أصل المَعرفة؛ لذا لا نجدُ في معارفِ أهل اللهِ اختلافاً في الأصولِ المَعرفيَّة، ولا التَّجلِّيات الكشفيَّة؛ لأنَّها كشوفاتٌ حَقيَّةٌ عن إلٍّ واحدٍ.

قال الشَّيخُ الأكبر محيي الدِّين رضي الله عنه في «**الفتوحات المكيَّة**»:

وكذلك أهلُ الكشفِ المتَّقون مِن أَتْباعِ الرُّسل.. ما اختلفوا في الله -أي: في عِلمهم به- ولا نُقِل عن أحدٍ منهم ما يُخالِف به الآخرَ فيه مِن حيث كشفُه وإخبارُه، لا من حيث فكرُه! فإنَّ ذلك يدخل مع أهلِ الأفكار.

فهذا ممَّا يدلُّك على أنَّ علومَهم.. كانت أنواراً لم تتمكَّن لشبهةٍ أن تتعرَّضَ إليهم جملةً واحدةً؛ فقد علمتَ أنَّ النُّورَ إنَّما اخْتُصَّ بأهلِ النُّور، وهم الأنبياء والرُّسل ومَن سلكَ على ما شرعوه، ولمْ يَتعدَّ حدودَ ما قرَّروه، واتقَوا اللهَ ولزِموا الأدبَ مع الله؛ فهم على نورٍ من ربِّهم ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النُّور: ٣٥]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢] **يعني**: في نعتِ الحقِّ وما يَجبُ له؛ فإنَّ النَّاظرَ بفكره في معتقده.. لا يَبقى على حالَةٍ واحدةٍ دائماً؛ بل هو في كلِّ وقتٍ بحسب ما يعطيه دليلُهُ في زعمه في وقته، فيخرُجُ مِن أمرٍ إلى نقيضهِ. انتهى(١)

وكذلك قولهم في الحقيقة المُحَمَّديَّة؛ فهي وإن تعدَّدت أذواقُ العارفين في شرحها -ومِن ثَمَّ تعدَّدت مُسمياتُها بحسب المَشاهِد-.. إلا أنهم لم يختلفوا في أنَّها مجعولة، فمِن العارفين بهذه الحقيقة مَن يُسمِّيها: حقيقةَ الحقائق، ومنهم مَن يُسمِّيها: الرُّوحَ الأعظمَ، ومنهم مَن يُسمِّيها: الطَّامةَ الكبرى، ومنهم مَن يُسمِّيها: القلم، ومنهم مَن يُسمِّيها: العرشَ، ومنهم مَن يُسمِّيها: النُّورَ الذَّاتي، إلى آخر هذه التَّسميات التي تعبِّر في معنى كلٍّ منها عن ذوقٍ مخصوص لهذه الحقيقة، وتدلُّ على مشهدٍ أو أكثر مِن مَشاهدها الرَّقيقة.

---

(١) «الفتوحات المكيَّة» (ج٣/ ٨٢).

الفصل الثاني عشر:

قال الشَّيخ الأكبر في «الفتوحات المكية»:

المَفعول الإبداعيُّ الذي هو الحقيقةُ المُحَمَّدية عندنا، والعقلُ الأوَّل عند غيرنا، وهو القلمُ الأعلى الذي أبدعَه الله تعالى مِن غير شيء. انتهى[١]

قلتُ: هذا تصريحٌ واضحٌ بأنَّ الحقيقةَ المُحَمَّديةَ.. جوهرٌ مفعولٌ لا فاعل، حادثٌ لا قديم.

وقال سيِّدي أحمد السِّرهندي قدس الله سرَّه: **الحقيقة المُحَمَّدية:** هي التَّعيُّن الإمكانيُّ النُّوريُّ. انتهى[٢]

وهذا تصريحٌ أيضاً بأنَّ هذا النُّورَ المُحَمَّديَ.. مِن جملة المُمكنات.

بل نقول من باب التَّحقيق: لولا إمكانُ حقيقته صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. لَمَا صحَّت له الخلافة الكامِلة؛ **إذ الإمكان:** برزَخٌ بين الوجودِ والعدم، له وجهٌ إلى هذا ووجهٌ إلى هذا؛ ولأجلِ هذا التَّقابلِ.. صحَّتِ الخلافةُ الكاملةُ للإنسان الكامل صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ، وصحَّت واسطتُه بين الحقِّ والخلق، وهو معنى

(١) «الفتوحات المكيَّة» (ج١/ ٩٤).

(٢) انظر «عطية الوهاب» (ص٧) للشيخ محمد بك الأوزبكي في الدفاع عن الإمام السِّرهندي قدس سره.

ما نقلناه من قبل عن سيِّدي أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه بقوله: **(هو البرزخُ الوسَطُ الفارقُ بين الخلقِ والحقِّ)** صلَّى اللهُ علَيهِ وآله وسَلَّم.

وقال سيِّدي أحمد التِّيجاني رضي الله عنه:

أمَّا حقيقتُه المُحَمَّديَّة: فهو أوَّلُ موجودٍ أوجدَه الله تعالى مِن حضرةِ الغَيب، وليس عند اللهِ مِن خَلْقِهِ مَوجودٌ قبلَها. انتهى[1]

وقال السَّيد الشَّريفُ الجُرجاني قدس الله روحه، في «**التعريفات**»:

وهو أوَّلُ مَوجودٍ خَلَقَهُ اللهُ على صُورَتِهِ، وهو الخَليفَةُ الأكبرُ، وهو الجوهرُ النُّورانيُّ. انتهى[2]

ومعنى قوله: (خَلَقَهُ اللهُ على صُورَتِهِ)؛ يشير إلى الحديث الصَّحيح: «**إنَّ الله خلق آدم على صورةِ الرَّحمن**»[3] **أي**: صفتِه. **أي**: ألبسه اللهُ حُللَ أسمائه وصفاته، وأبرزَه للخَلقِ خليفةً لذاته، فهو صورة الاسمِ الجامع «**الله**»؛ لأنَّه جامعٌ

---

(١) «جواهر المعاني» (ص١٠٧).

(٢) «التعريفات» (ص١١٢).

(٣) رواه الدارقطني في «الصفات» عن ابن عمر رضي الله عنهما، انظر «الجامع الكبير» (ج١١/ ٢٩٠).

لمعاني الأسماء والصِّفات، وهذا هو معنى قول سيِّدي أحمد الرِّفاعي آنفاً عن الحقيقة المُحَمَّدية:

«دَركُ هذه الكَينونة، وفهْمُ مَزيَّة النُّبوَّة، والاطِّلاعُ على نسجِ الصُّورةِ الآدمية.. قائمٌ بحقيقته، ومعربٌ عن **سِرٍّ جامعٍ**».

فهذا هو السِّرُّ الجامعُ، اسمُ الذَّات «**الله**»، جامعٌ لسائر الأسماء والصفات، ولمَّا كان صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم هو المُتخلِّق المُتحقِّق بسائر الأسماء والصِّفات.. كان مَظهراً لاسم الذَّاتِ «**الله**».

❁ ❁ ❁

الفصل الثَّالث عشر:

ذكرنا فيما سبق أنَّه لكي تعرفَ الحقَّ سبحانه.. فلابدَّ مِن دليلٍ يكشفُ لك عن أسمائه وصفاته؛ فإنَّ معرفة الذَّات من حيث حقيقتُها.. غيرُ ممكنةٍ أبداً؛ وإنَّما المعرفةُ تكون مِن خلالِ أنوارِ وأثارِ الأسماء والصِّفات، وليس هناك مَن تحقَّقَ كمالَ التَّحقُّقِ والتَّخلُّقِ بالأسماء والصِّفات.. أرفع وأعلى وأكمل مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم، القائل: «**فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[1].

فهو الدَّليلُ الكاشفُ لنا، وهذا هو معنى النُّور، فهو **النُّورُ الذَّاتيُّ**؛ بمعنى أنَّه مَظهرٌ لاسم الذَّات «**الله**».

فمَن تخلَّق بأخلاقه صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ.. فقد تخلَّق بأخلاق الله، وهذا مِن معاني قولِ الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧].

ومن هنا يقول العارفون رضي الله عنهم: الحقيقة المُحَمَّدية: صورةُ الاسمِ الجامعِ الإلهيِّ. فليُفهم

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦١٠١)، ومسلم (١٢٧) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

هذا وقد يأتي معنى **النُّور الذَّاتيِّ** صلَّى الله عليه وسلَّم.. نِسبةً إلى الذَّات الإلهيَّة؛ لِشرف حقيقتِهِ وعظيمِ أمرِها.

أو بمعنى أنَّها بَرَزَتْ عن الذَّاتِ الإلهيَّةِ مِن دونِ واسطةٍ، فهي تأخذُ مَددَها مِن الذَّاتِ مُباشَرةً، وكلُّ مَن هو دونَ هذه الحقيقةِ.. فإنَّما خُلِقَ بواسطَتِها؛ إيجاداً وإمداداً، ومِن قول السَّيد محمد ابن جعفر الكتَّاني رضي الله عنه الذي نقلناه:

وهذا مِن أكبر خصوصيَّاته صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ؛ وهو أنَّه خُلق عن الله بلا واسطةِ شيء، وخُلِق كلُّ شيءٍ بواسطته، واستمدَّ عن الله بلا واسطةِ شيءٍ، واستمدَّ كلُّ شيءٍ دونَه بواسطتِه، وخُلِقَت الأشياءُ كلُّها مِن أجلِه، وخُلِق هو مِن أجل مولاه. انتهى[1]

وقال العلَّامة ابنُ حجر الهيتمي رضي الله عنه في «**المِنَح المكيَّة شرح الهَمزيَّة**»، عند قول الناظم رضي الله عنه:

كُلُّ فَضْلٍ فِيْ الْعَالَمِيْنَ فَمِنْ فَضْـ ـلِ النَّبِيِّ اسْتَعَارَهُ الفُضَلَاءُ

ما نَصُّهُ:

(١) «جلاء القلوب» (ج٣/ ٢٤٧).

لأنَّه المُمِدُّ لَهُم؛ إذْ هو الوارِثُ لِلحَضرةِ الإلهيَّةِ، والمُسْتَمِدُّ مِنها بلا واسِطَةٍ دُون غيرِهِ؛ فإنَّه لا يَستمِدُّ منها إلا بواسِطَته، فلا يَصِلُ لِكامِلٍ منها شيءٌ.. إلَّا وهو مِن فَيضِ مَدَدِهِ وعلى يَدَيْهِ. انتهى[1]

كذلك هو معنى ما ذكره السَّيدُ المحقِّق عبدُ الكريم الجيليُّ رضي الله عنه، مِن أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مَخلوقٌ مِن نور التَّجلِّي الذَّاتي، وما سواه فمخلوق مِن تجلِّيات أنوارِ الأسماء والصِّفات، **فقال قدَّس الله سرَّه:**

اعلم أنَّ رَسولَ اللهﷺ كان أكملَ الوجودِ، وأفضلَ العالَمِ وأشرفَ الخلقِ بالإجماعِ؛ لكونه مخلوقاً مِنْ نورِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ، ومَا سواهُ فإنَّما هو مَخلوقٌ مِنْ أنوارِ الأسماءِ والصِّفاتِ، فلأجْلِ ذلكَ كان عليه السَّلام أوَّلَ مَخلوقٍ خَلَقَهُ اللهُ تعالى، فكما أنَّ الذَّاتَ مقدَّمَةٌ على الصِّفاتِ.. فَمَظْهَرُهَا أيضاً مُقَدَّمٌ على مَظْهَرِ الصِّفاتِ، وقد أخبرَ عن نفْسِهِ في حديثِ جابر رضي الله عنه.

فقال: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ رُوْحَ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ، ثُمَّ خَلَقَ اَلعَرْشَ مِنْهُ، ثُمَّ خَلَقَ العَالَمَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُ**». انتهى[2]

---

(١) «المِنح المكيَّة في شرح الهَمزيَّة» (ص٣٢٢).

(٢) «الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية» (ص١١٥).

ومعنىً آخر **للنُّور الذَّاتيِّ**؛ هو كونه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.. قد وسِعَ المعرفةَ الذَّاتيَّة دون غيره؛ لكونه الأكملَ دون الكلِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، قال تعالى في الحديث القدسي: «**مَا وَسِعَنِيْ أَرْضِيْ وَلَاْ سَمَاْئِيْ وَوَسِعَنِيْ قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنُ**»[1] في إشارة إلى قلبِهِ الشَّريفِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

قال العارفُ الجِيلي رضي الله عنه:

فالأنبياءُ، والأولياءُ، والملائكةُ، وسائرُ المُقَرَّبين مِن سائرِ المَوجوداتِ لَيس عندهم وسْعُ المَعرفَةِ الذَّاتيَّةِ، ومحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم -الذي هو قَلْبُ الوجودِ-.. هو الذي عندهُ الوُسْعُ الذَّاتيُّ للمَعرفةِ الذَّاتيَّةِ، وإلى ذلك أشارَ بقوله: «**لِيْ وَقْتٌ مَعَ اللهِ لَاْ يَسَعُنِيْ فِيْهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَاْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**»[2].

إلى أن قال رضي الله عنه: فوسِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تَجلِّيهِ الذَّاتيِّ الذي ضاقتِ الموجوداتُ عن ذلك...ولَمَّا كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) أخرج الإمام أحمد في «الزهد» (٤٢٣) من قول وهب بن منبّه: «**إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ تُطِقْ أَنْ تَحْمِلَنِي، وَضِقْنَ مِنْ أَنْ تَسَعَنِي، وَسِعَنِي قَلْبُ الْمُؤْمِنِ الْوَادِعِ اللَّيِّنِ**».

(٢) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٩٢٦): يذكره المتصوفة كثيراً، وهو في «رسالة القشيري» لكن بلفظ: «**لي وقتٌ لا يسعني فيه غيرُ ربِّي**»، ويشبه أن يكون معنى ما للترمذي في «الشمائل» ولابن راهويه في «مسنده» عن علي في حديث طويل: «كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتى منزلَهُ جزَّأ دخولَه ثلاثةَ أجزاءٍ: جزءا لله تعالى، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزَّأ جزأه بينه وبين النَّاس». انتهى

ذاتيًّا متَّسِعاً للتَّجلِّي الذَّاتيِّ.. كان مُتَّصفاً مُتحقِّقاً بسائرِ الأسماءِ والصِّفات، ومُستوعِباً لسائرِ الكمالاتِ مِن جميع الوجوه. انتهى[١]

ومعنى آخر: هو أنَّ نورَهُ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاتيٌّ؛ **أي**: ينبثِقُ مِنْ ذاتِهِ الشَّريفةِ، فالنِّسبةُ هنا راجعةٌ إلى ذاتِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

قال العلامةُ ابنُ حجر الهيتمي رضي الله عنه في **«شرحه الهَمْزيَّة»**:

فآياتُ كلِّ نبيٍّ إنَّما هِيَ مُقتَبَسَةٌ مِنْ نورِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم كالشَّمسِ، وَهُمْ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ كالكواكِبِ، فهي غيرُ مُضِيئةٍ بذاتها؛ وإنَّما هي مُسْتَمِدَّةٌ مِن نور الشَّمسِ، فإذا غابتْ.. أظْهَرَتْ أنوارَها، فهُم قبْلَ وجودِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.. إنَّما كانوا يُظهِرونَ فضلَه، وأنوارُهم مُسْتَمِدَّةٌ مِن نورِهِ الفائضِ ومَدَدِهِ الواسعِ، ألا ترى أنَّ ظُهورَ خلافةِ آدمَ وإحاطتَهُ بالأسماءِ كلِّها.. إنَّما هو مُسْتَمَدٌّ مِن جوامِعِ الكَلِمِ المَخصوصِ بِهِ نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم؟ ثُمَّ تَوالَت الخلائفُ[٢] إلى زمَنِ بُروزِ جِسمهِ الشَّريفِ، فَلَمَّا بَرَزَ كان كالشَّمسِ؛ انْدَرَجَ في نُورهِ كلُّ نورٍ، وانْطَوى تحت مَنشورِ آياتهِ كلُّ آيةٍ.

---

(١) «الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية» (ص١١٦) باختصار.

(٢) في المطبوع من «شرح الهمزية»: (الخلائق) بدل: (الخلائف) وهو تصحيف، والخلائف جمع خليفة؛ المقصود بهم هنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والله أعلم.

أمَّا غَيرُهُ مِن الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام.. فلَمْ يُعْطَ أحدٌ مِنهم كرامةً أو فضيلةً.. إلَّا وقد أعْطِي مِثلَها أو ما هو أعظمَ مِنها كما سبَرَهُ الأئمَّةُ ووضَّحوهُ. انتهى(١)

ونختم هذا الفصلَ بفيوضاتٍ مِن شِعر سيدي محمَّد بهاءِ الدِّين الرَّواس قدَّس الله سرَّه، وهو يمتدح الحقيقةَ المحمَّديَّة:

طِرَاْزُ سِرٍّ لَهُ فِيْ سَمْكِ قُبَّتِهِ ... مِنَ الشُّؤُوْنِ شُمُوْسٌ مَا لَهَا حُجُبُ
فِيْهِ النَّبِيُّوْنَ تَرْجُوْ فَيْضَ صَاحِبِهِ ... والبَحْرُ مُنْسَجِرٌ وَالمَوْجُ مُضْطَرِبُ
طَافَ المَلَائِكُ فِيْ أَعْتَابِهِ زُمَرَاً ... وَالعَارِفُوْنَ رِجَالُ اللهِ والقُطُبُ
تَبَارَكَ اللهُ نُوْرٌ لَاْ انْحِجَابَ لَهُ ... مُحَجّبٌ عَنْ عُيُوْنِ السُّوْءِ مُحْتَجِبُ
تَدُوْرُ فِيْ مَلَوَانِ الكَوْنِ صَائِلَةً ... خُيُوْلُهُ وَيُرَىْ مِنْ دُوْرِهَا العَجَبُ
تَطُوْفُ دَائِرَةُ الدُّنْيَا مُعَسْكِرَةً ... وَفِيْ السَّمَاوَاتِ مِنْهَا عَسْكَرٌ لُجُبُ
لَهُ مَظَاهِرُ آثَارٍ مُطَلْسَمَةٍ ... تَرُوْحُ فِيْ العَالَمِ الأَعْلَىْ وَتَنْقَلِبُ
طَافَتْ بِكَعْبَتِهِ الأَلْبَابُ فَانْبَهَرَتْ ... بِمَظْهَرٍ هُوَ فِيْ كَوْنِ الوَرَىْ السَّبَبُ
دَعْ عَنْكَ جَلْجَلَةَ الآثَارِ مُلْتَفِتاً ... عَنْهَا إِلَيْهِ وَهَذا القَصْدُ والطَّلَبُ
وَقُلْ: أَغِثْنِيْ رَسُوْلَ اللهِ مَرْحَمَةً ... بِنَظْرَةٍ دُوْنَهَا الأَعْرَاضُ وَالنُّشُبُ
تَرَ الغِيَاثَ مِنَ الأُفْقِ السَّنِيِّ عَلَىْ ... نَاْدِيْكَ يَنْدَىْ بِسَحٍّ دُوْنَهُ السُّحُبُ

---

(١) «المِنح المكيَّة في شرح الهَمزيَّة» (ص٣٢٢).

الفصل الرَّابع عشر:

كما أنَّ حقيقتَهُﷺ أصلُ الحقائقِ، وروحَهُﷺ أصلُ الأرواحِ.. فإنَّ مادَّةَ طينتِهِ الشَّريفةِ كذلك أصلُ الأجسام.

وجَسدُهُ الشَّريفُ العُنصريُّ.. مخلوقٌ مِن أصلهِ النُّورانيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولذا كانت فضلاتُهُ طاهرةً صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان لا يُرى له ظِلٌّ كما يقال، ولله درُّ الإمام البوصيريِّ رضي الله عنه، والذي عرَّج على هذا المعنى فقال في القصيدة المحمَّدية:

مُحَمَّدٌ جُبِلَتْ بِالنُّورِ طِينَتُهُ   مُحَمَّدٌ لَمْ يَزَلْ نُورًا مِنَ الْقِدَمِ

فقد جُبِلَت -أي: مُزِجت- طينَتُهُ الحِسِّيَّة الظَّاهرةُ؛ بنورِ حقيقتهِ الأصليَّةِ الطَّاهرة؛ فَظَهَرَ للخَلْقِ نُوراً في نُورٍ، صلَّى اللهُ على ذاته وصفاته وأفعاله.

وقد ذكرَ أهلُ الله في هذا المبحث أموراً نافعةً تتعلَّق بمعرفةِ سيِّد الخلقِ صلَّى الله عليه وسلَّم، منها ما فصَّله السيِّدُ محمد ابن جعفر الكَتَّاني رضي الله عنه **فقال:**

ولمَّا تعلَّقت إرادتُه تعالى بخلقِ مادَّةِ جسمِهِ عليه الصَّلاة السَّلام.. أوجدَ اللهُ عزَّ وجلَّ طينَتهُﷺ التي هي أصلُ جميع الأجسام.

ثم قال رحمه الله:

ويَظْهَرُ أنَّه كان له عليه السَّلام طِينتانِ؛ طينةٌ عتيقةٌ لطيفةٌ نورانيَّةٌ؛ تركَّبت قديماً مِن أنوارِ حقيقتهِ المحمَّديَّةِ، ليست كالطِّين المعروف، ولا هيَ مِن جِنْسِ ما هو مألوف، منها تكوَّنَتْ نفْسُهُ الطَّاهرةُ، وجِسمُهُ اللَّطيفُ الطَّاهرُ الذي هو فوقَ كلِّ جسمٍ ظاهر، وكذا تكوَّنَت منها أجسامُ المَلائكةِ الكِرام والأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام، وأجسامُ الآل والأصحاب، وغيرِهم من الأقطابِ والأفرادِ. انتهى[١]

قلتُ: كذلك ذكرَ **العارفُ بالله علي دَده البوسنوي** رضي الله عنه(ت:١٠٠٧هـ) في كتابه: «**محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر**» أنَّ أوَّل ما خلق الله مِن العناصرِ الكليَّة الجامعة سيدنا محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلَّم، **فقال**:

أوَّل ما خلق الله تعالى من العناصر الكليَّة الجامعة -كما قال ابن وهب رحمه الله تعالى- جوهرةَ خاتم الأنبياء وعنصرِ سيِّد الأصفياء؛ سيدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، كفضَّةِ خاتم... انتهى[٢]

---

(١) «جلاء القلوب» (٢/ ٥٠).

(٢) «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» (ص١١).

وقال أيضاً رضي الله عنه في نفس الكتاب:

أوَّل ما خلقَ اللهُ مِن الأجسامِ جوهرةً وقد تلألأت؛ فكانت طينة سيِّدنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم منها، ونظر إليها بالهيبةِ فصارت ماءً، وكان عرشه على الماء قبل أن يخلقَ السَّموات، ثمَّ تموَّج الماءُ فخَلَقَ الأرضَ منه، فكان يتلألأ نورُ الطِّينةِ النَّبويَّةِ لأهل السَّماء كالقمر لأهل الأرض، ثمَّ خَلَقَ مِن الأرضِ طينةَ آدم عليه السَّلام، فكان يتلألأ نوره من جبهته... انتهى[1] الى آخر ما قال رضي الله عنه.

وقال سيِّدي أبو العباس أحمد التِّيجاني قدس الله روحه عن هذه الطِّينة النُّورانيَّة الشَّريفة:

وأما طينته التي هي جسدُه الشَّريف.. فكوَّنَ اللهُ منها أجسادَ الملائكة والأنبياءِ والأقطابِ، وخمَّرَ طينَتَه الشَّريفة عليها مِن الله الصَّلاة والسَّلام بماء البقاء. انتهى[2]

---

(١) «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» (ص٢٠).

(٢) «جواهر المعاني وبلوغ الأماني» (١/ ١١٣).

ومِن كلام سيدي عبدُ الغنيِّ النَّابلسيُّ قدَّس الله سرَّه في «**كشف السِّرِّ الغامض في شرح ديوان ابن الفارض**» عن هذه الطِّينة الشَّريفة أيضاً عند قول النَّاظم رضي الله عنه:

وَرُوْحِيَ لِلْأَرْوُاحِ رُوْحٌ وَكُلَّمَا ... تَرَى حَسَنَاً فِيْ الكَوْنِ مِنْ فَيْضِ طِيْنَتِيْ

قوله:

والطِّينة -بالطاء المهملة- واحدة الطِّين؛ وهو ترابٌ معجونٌ بماءٍ، **كناية** عن الجسد الشَّريف المُحمَّديِّ؛ فإنه كما أنَّ الأرواحَ كلَّها مِن رُوحه صلَّى الله عليه وسلَّم منفوخَةٌ في أجسادِها؛ لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم رُوح اللهِ -الذي هو أوَّل مخلوقٍ، والإضافة للتَّشريف، مثل: ناقة الله، وأرضُ الله، وعبد الله-.. كذلك جميعُ الأجسادِ الحَسَنَةِ (**فِيْ الكَوْنِ**) يعني التي يظهر عليها الحُسْنُ بالنَّظَرِ إلى خالقها كما ذكرَ (**مِنْ فَيْضِ**) جسده صلَّى الله عليه وسلَّم.

إلى أن قال رضي الله عنه:

ولا يكون نبياً إلا وهو روحٌ وجسدٌ؛ فروحُه أصلُ الأرواح، وجسدُهُ أصلُ الأجسادِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ثمَّ قال رضي الله عنه:

فهو صلَّى الله عليه وسلَّم أبو الأرواحِ وأبو الأجساد، والله لطيف بالعباد. انتهى[(١)]

قلتُ: الكلام هنا عن مادَّةٍ أصليَّة هي أصلُ سائرِ الموادِّ الحِسِّيَّة، وهي الطِّينةِ اللَّطيفةِ النُّورانيَّةِ التي هي ليست كالطِّينَةِ العنصرية الكثيفةِ كما ذُكِر آنفاً، وقد نقل **سيدي عبد الرحمن ابن زِكْري** رضي الله عنه بأنَّ: مادَّة جسدهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.. خُلِقَت قبل سائر المَوادِّ[(٢)].

ولعلَّ هذه الطِّينة الشَّريفة هي التي أشار لها أيضاً سيِّدي الغوثُ الكبير إبراهيم الدُّسوقي قُدِّس سرُّه في صلاته الذَّاتيَّة، بقوله رضي الله عنه عند افتتاحها: **(اللهمَّ صلِّ على الذَّات المُحمَّديَّةِ، اللَّطِيْفَةِ الأحديَّة)** والله أعلم بأسرار كلام أوليائه.

أما الطِّينة العنصريَّة للصُّورَة الظَّاهرةِ المُحمَّديَّةِ ﷺ فكما قال في «**جلاء القلوب**» ما نصُّه:

(١) «كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» (٢/ ٨١٢-٨١٣) باختصار.

(٢) انظر «جلاء القلوب» (٢/ ٥٣).

والطِّينةُ الثَّانيةُ: طينةٌ أرضيَّة تُرابيَّةٌ، وذلك أنَّهُ تعالَى لمَّا أرادَ أنْ يخلقَها.. أمرَ جبريلَ عليه السَّلام أنْ ينزلَ إلى الأرضِ وأنْ يأتيَهُ بالطِّينَةِ التي هي قلبُ الأرض وبهاؤها ونورها، وهي طينَةُ موضعِ الكعبةِ، التي جاءَ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّها خُلقَت قبلَ الأرضِ بألفَي سنَةٍ. ثم ذَكَرَ بقيَّةَ الحديث.

إلى أن قال: فقَبَضَ قبضةً مِن الطِّينة المذكورة بعد انتقالها إلى موضع قبره عليه السَّلام، فعُجِنَت بماء التَّسنيم -الذي هو أرفع شراب أهل الجنة- في مَعينٍ مِن أنهار الجَنَّة؛ حتى صارت كالدُّرَّةِ البيضاء، لها نورٌ وشعاعٌ عظيمٌ، وطِيْفَ بها في عالَمَي المُلك والمَلكوت؛ حتَّى عرفتِ الملائكةُ وجميعُ المخلوقاتِ سيِّدَنا محمداً صلَّى الله عليه وسلَّم وفضلَه في طينته قبلَ أنْ تَعرِفَ آدمَ عليه السَّلام في تُرابيَّتهِ، وما زالَ صلَّى الله عليه وسلَّم تَلمعُ أنوارُه في هذه الطِّينَةِ الجُثمانيَّةِ العالية إلى أنْ خلقَ اللهُ آدمَ وصوَّرَه في طينتهِ الصَّلْصَاليَّة.

وفي «**عوارف المعارف**» **للعارف السُّهرُوَرديِّ** رضي الله عنه في **(الباب الأوَّل)** منها ما نصُّه: وقيل: لمَّا خلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بقوله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١].. نطَقَ مِنَ الأرضِ وأجابَ مَوضعُ الكعبةِ، ومِنَ السَّماءِ ما يُحاذِيْها.

وقد قال عبد الله بنُ عباس رضي الله عنهما: أصلُ طِينَةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم.. مِنْ سُرَّةِ الأرضِ بمكَّةَ.

فقال بعض العلماء: هذا يُشعِرُ بأنَّ ما أجابَ مِنَ الأرضِ إلَّا دُرَّةُ المُصطَفى صلَّى الله عليه وسلَّم[(١)]، ومِنْ مَوضع الكعبةِ.. دُحِيَتِ الأرضُ؛ **فَصَارَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم هو الأصلُ في التَّكوينِ، والكائناتُ تَبَعٌ لَهُ**، وإلى هذا الإشارةُ بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّيْنِ**» وفي روايةٍ: «**بَيْنَ الرُّوْحِ والجَسَدِ**»[(٢)].

وقيل: لذلكَ سُمِّيَ أُمِّيًّا؛ لأنَّ مكةَ أمُّ القُرى، ودُرَّتَهُ أمُّ الخَلِيْقَةِ[(٣)].

وتربةُ الشَّخصِ مَدفنُه؛ فكان يقتضي أنْ يكونَ مدفنُهُ بمكَّةَ حيثُ كانت تربتُهُ منها! **ولكن قيل**: إنَّ الماءَ -أي الذي كان عليه العرشُ- لَمَّا تموَّجَ.. رَمَى الزَّبَدَ إلى النَّواحي؛ فوقَعَتْ جوهرةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى ما يُحاذِي تُربَتَهُ

---

(١) في النسخة المطبوعة من «عوارف المعارف»: (هذا يُشعِرُ بأنَّ ما أجابَ مِنَ الأرضِ **ذَرَّةُ** المُصطَفى محمد صلَّى الله عليه وسلَّم)، بدل: (هذا يُشعِرُ بأنَّ ما أجابَ مِنَ الأرضِ **إلَّا دُرَّةُ** المُصطَفى صلَّى الله عليه وسلَّم).

(٢) رواه أحمد، والبخاري في «تاريخه»، وأبو نُعيم في «الحلية» وصحَّحه الحاكم. وأمَّا ما اشتهر على الألسن بلفظ: (**كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين**).. فقال شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة»: لم نقف عليه بهذا اللفظ. انتهى من «المواهب اللدنيَّة» (ص٤٠-٤١).

(٣) في النسخة المطبوعة من «عوارف المعارف»: (وذَرَّته) بالذال، بدل: (ودُرَّته).

بالمدينة؛ فكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مَكِّيًّا مَدنِيًّا، حقيقَتُهُ إلى مكَّةَ، وتُربَتُهُ بالمدينَةِ. انتهى[(١)]

قال السيِّد محمد جعفر الكتَّاني رضي الله عنه، بعدما أفاض في الكلام عن النَّشأة الطينيَّةِ له صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد أطال فيها:

ومِن هذا تفهم: أنَّ له عليه الصَّلاة والسَّلامُ نشآتٍ ثلاثاً:

نَشأَةُ حقيقتِهِ المُحمَّديَّةِ، ونَشأَةُ روحِهِ السَّميَّةِ، ونَشأَةُ طِينَتِهِ الزَّكيَّةِ؛ وكلُّها أصولٌ لغيرها، فحقيقتُهُ ﷺ أصلُ جميعِ الحقائقِ، وروحُهُ ﷺ أصلُ جميعِ الأرواحِ، وطِينَتُهُ ﷺ أصلُ جميعِ الأجسامِ، وأَكملُ الأولياءِ.. مَن كانَ على قلبِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه النَّشآتِ كلِّها. انتهى[(٢)]

❁ ❁ ❁

(١) «عوارف المعارف» (١/ ١٧٤-١٧٥)، «جلاء القلوب» (٢/ ٥٢-٥٣).

(٢) «جلاء القلوب» (٢/ ٦٠).

الفصل الخامس عشر:

قال الشَّيخُ الأكبر رضي الله عنه في «**الفتوحات المكية**» في (الباب الثاني عشر، في معرفة دورةِ فلَكِ سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي دَورةُ السِّيادةِ، وأنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهيئتهِ يومَ خلقَهُ اللهُ تعالى):

أَلَاْ بِأَبِيْ مَنْ كَانَ مَلْكَاً وَسَيِّدَاً ... وَآَدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّيْنِ وَاقِفُ
فَذَاكَ الرَّسُوْلُ الأَبْطَحِيُّ مُحَمَّدٌ ... لَهُ فِيْ العُلَىْ مَجْدٌ تَلِيْدٌ وَطَارِفُ
أَتَىْ بِزَمَانِ السَّعْدِ فِيْ آَخِرِ المَدَىْ ... وَكَانَتْ لَهُ فِيْ كُلِّ عَصْرٍ مَوَاقِفُ
أَتَىْ لِانكِسَارِ الدَّهْرِ يَجْبُرُ صَدْعَهُ ... فَأَثْنَتْ عَلَيْهِ أَلْسُنٌ وَعَوَارِفُ
إِذَا رَامَ أَمْرَاً لَاْ يَكُوْنُ خِلَافَهُ ... وَلَيْسَ لِذَاكَ الأَمْرِ فِيْ الكَوْنِ صَارِفُ

ثم قال رضي الله عنه بعدما ذكر أنَّ رُوْحَ سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّلُ الأرواحِ، وأنَّ اللهَ أعلمَه بنُبوَّتِهِ وبشَّرهُ بها وسيدنا آدمُ لمْ يكن إلَّا كما قالَ: «**بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ**» وأنَّه عندما:

انْتَهى الزَّمانُ بالاسْمِ الباطِنِ في حقِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى وجودِ جِسْمِهِ وارْتِباطِ الرُّوحِ بِهِ.. انْتَقَلَ حُكْمُ الزَّمانِ في جَرَيَانِهِ إلى الاسْمِ الظَّاهِرِ؛ فَظَهَرَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بذاتِهِ جِسْماً ورُوحاً، فكان الحُكم لهُ باطِناً أوَّلاً في جميعِ ما ظَهَرَ مِن الشَّرائعِ على أيدي الأَنبياءِ والرُّسُلِ سلام الله عليهم

أجمعين، ثُمَّ صارَ الحكمُ له ظاهِراً فَنَسَخَ كُلَّ شرعٍ أَبرزَهُ الاسْمُ الباطِنُ بحكمِ الاسْمِ الظَّاهرِ؛ لِبيانِ اختلافِ حُكْم الاسْمَيْنِ وإنْ كان المُشَرِّعُ واحِداً وهو صاحبُ الشَّرعِ. انتهى[1]

وقال أيضاً قدَّس الله روحه:

وإنَّما وُجِدَ آخِراً؛ ليكونَ إماماً بالفعلِ حَقيقةً، لا بالصَّلاحيَّةِ والقُوّةِ، فعند ما وُجِدَ عَيْنُهُ.. لَمْ يُوجَد إلَّا والِيَاً سُلطاناً مَلحوظاً، ثُمَّ جَعَلَ لَهُ نُوَّاباً حين تأخَّرَتْ نَشأةُ جَسَدِهِ؛ فأوَّلُ نائبٍ كان لهُ وخليفةٍ؛ آدمُ عليه السَّلامُ، ثُمَّ وَلَدَ واتَّصَلَ النَّسْلُ وعَيَّنَ في كلِّ زَمانٍ خُلفاءَ، إلى أنْ وَصَلَ زمانُ نَشأةِ الجِسْمِ الطَّاهِرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فظَهرَ مِثْلَ الشَّمسِ الباهرةِ، فاندرَجَ كُلُّ نورٍ في نورِهِ السَّاطِعِ، وغَاب كُلُّ حُكْمٍ في حُكمِهِ، وانْقادَتْ جميعُ الشَّرائعِ إلَيه، وظَهرت سيادتُهُ التي كانت باطنةً، فهو الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ وهو بكلِّ شَيءٍ عليمٌ، فانَّهُ قال: «**أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**»[2]، وقال عن ربِّهِ: «**ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ**»[3]، فَحصَلَ لَهُ التَّخَلُّقُ

(١) «الفتوحات المكية» (١/ ١٤٣).

(٢) متفق عليه: البخاري (٧٠١٣)، مسلم (٥٢٣) واللفظ له.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) وغيره من حديث معاذ رضي الله عنه.

والنَّسَبُ الإلهيِّ مِن قوله تعالى عن نفْسِهِ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. انتهى(١)

وقال رضي الله عنه:

ولِكلِّ أُمَّةٍ بابٌ خاصٌّ إلهيٌّ، شارِعُهُم هو حاجِبُ ذلك البابِ الذي يَدخلون مِنه على الله تعالى، ومحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم.. هو حاجِبُ الحُجَّاب؛ لعمومِ رسالته دونَ سائرِ الأنبياءِ عليهم السَّلام، فَهُمْ حَجَبَتُهُ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن آدمَ عليه السَّلام إلى آخر نبيٍّ ورسولٍ.

وإنَّما قلنا: (إنَّهم حَجَبَتُهُ)؛ لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**»(٢) فَهُمْ نُوَّابُهُ في عالَم الخَلْقِ وهوَ رُوْحٌ مُجرَّدٌ عارفٌ بذلك قَبْلَ نشأةِ جِسْمِهِ -قِيلَ لهُ: متى كنتَ نَبِيًّا؟ فقالَ: «**كُنْتُ نَبِيًّا وآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّيْنِ**» أي: لَمْ يوجَد آدمُ بعدُ- إلى أن وصلَ زمانُ ظهورِ جسدهِ المُطَهَّرِ صلَّى الله عليه وسلَّم.. فلَمْ يبقَ حُكْمٌ لِنائِبٍ مِن نُوَّابهِ مِن سائرِ الحُجَّابِ الإلهِيِّيْنَ -وهم الرُّسلُ والأنبياءُ عليهم السَّلام-.. إلَّا عَنَتْ وجوهُهُم لِقَيُّومِيَّةِ مَقامِهِ؛ إذ كانَ حاجِبُ

---

(١) «الفتوحات المكية» (١/ ١٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والترمذي (٣١٤٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

الحُجَّاب، فقرَّرَ مِنْ شرعِهم ما شاءَهُ بإذن سيِّده ومُرسِلِهِ، ورفَعَ مِن شرعِهم ما أُمِرَ برفعِهِ ونَسخِهِ. انتهى[(١)]

تنبيه: وردَ في أخبارٍ وآثار أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم.. لا ظِلَّ لجسده الشَّريف؛ **قلتُ**: وهذا لِلطافةِ جسدِهِ ونورانيَّةِ حقيقتهِﷺ ؛ فإنَّ جسدَه الشَّريف لا كالأجسادِ كما أنَّ حقيقتَه لا كالحقائق، فهو بَشرٌ لا كالبشرِ؛ كما أنَّ الياقوتَ حَجَرٌ لا كالحَجرِ[(٢)].

وأيضاً وردَ في أخبارٍ صحيحةٍ: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم.. كان يُرى له ظِلٌّ!

فنقول في الجمع بين الخَبرَين:

أمَّا الذي وصفَهُ بعدم الظِّلِّ؛ فهو وصفُ فانٍ في شهودِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فإنَّه يَشهَدُ نورَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.. سارٍ في كلِّ شيءٍ، سارٍ في الحِسِّ والمَعنى، والظِّلِّ والشَّاخِصِ؛ فمَن كان نظرُهُ مُمتلِئاً بشهود نورِ

---

(١) «الفتوحات المكية» (١/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) وقد رأيت شعرةً من شعره الشَّريف صلَّى الله عليه وسلَّم عندما شرَّفني الله بتقبيلها وقد وجَّه عليها بعضُ الإخوة نوراً شديداً فلم يظهر لها ظِلٌّ، وكان ذلك في ليلة السابع والعشرين من شهر شعبان المكرَّم (١٤٤٥هـ) في منزلي بحضور جمعٍ من الإخوة حفظهم الله.

حقيقةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.. كيف يشهدُ ظِلاً مُغايراً لذاتهِ الشَّريفة أصلاً؟!

لَا تَرَىْ فِيْ شَمْسِهَا ظِلَّ الْسِّوَىْ   فَهْيَ شَمْسٌ وَهْيَ ظِلٌّ وَهْيَ فَيْ

أو يقال: إنَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم ظهرَ بأوقاتٍ بلا ظِلٍّ؛ لِيُنْبِيَ عن حَقيقتِهِ الأَصليَّة النُّورانِيَّةِ، وظَهَرَ حيناً آخرَ بالظِّلِّ؛ ليأنَسَ النَّاسُ ببشريَّتِهِ فيتَّبعوه، ويَعلموا بذلك أنَّه بَشَرٌ لا كالبَشَرِﷺ.

ولَمَّا كانَ الأمرُ كذلك.. شاهدَ السَّادةُ العارفونَ شيئاً مِن خصائصِ جسدهِ الشَّريفِﷺ فنجدُ وصْفَهم لهذا الجسدِ الطَّاهرِ في صلواتهم عليه مُخصَّصاً، فكما خَصُّوا حقيقتَه وروحَه.. كذلك خَصُّوا جسدَهُ صلَّى الله عليه وسلَّم بصلواتهم، كما جاء في «**دلائل الخيرات**» مثلاً:

(اللهمَّ صلِّ على رُوح سيِّدنا محمَّدٍ في الأرواح، وعلى جَسَدِهِ في الأجساد، وعلى قبره في القبور).

فائدة: ذَكَرَ هذه الصِّيغةَ الشَّيخُ المُحبُّ الفاني سيدي يوسف النَّبهاني رحمه الله في مجموع «**أفضل الصَّلوات على سيِّد السَّاداتﷺ**» وهي **الصَّلاة السَّادسة** في كتابه هذا، **فقال:**

قال الإمام الشعراني رضي الله عنه: كان صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «**مَنْ قَالَ هذهِ الكَيْفِيَّةَ.. رَآنِيْ فِيْ مَنَامِهِ، وَمَنْ رَآنِي فِيْ مَنَامِهِ.. رَآني يَوْمَ القِيامةِ، وَمَنْ رَآني يَوْمَ القِيامةِ.. شَفَعْتُ لَهُ، وَمَنْ شَفَعْتُ لَهُ.. شَرِبَ مِنْ حَوْضِيْ وَحَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلى النَّارِ**»[1].

قال الشَّيخ يوسف النبهاني رحمه الله: وذكر ذلك شُرَّاحُ الدَّلائلِ أيضاً بزيادةِ: «**سبعينَ مرةً**» عن الفاكهاني. **قال الشيخُ يوسف** رحمه الله: وقدْ جرَّبتُ هذه الصَّلاةَ قُبيلَ النَّومِ حتَّى نمتُ؛ فرأيتُ وجهَهُ الشَّريفَ صلَّى الله عليه وسلَّم في داخلِ القَمَرِ، وخاطَبْتُهُ، ثُمَّ غابَ في القَمَرِ، وأسأَلُ اللهَ العَظيمَ بجاهِهِ عليه الصَّلاة والتَّسليمِ أنْ يَحصُلَ لِيْ باقِي النِّعَمِ التي وَعَدَ بها صلَّى الله عليه وسلَّمَ في هذا الحديثِ الشَّريفِ. انتهى[2]

وفي صلاة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه خصه أيضاً بالصَّلاة على صورته الجسمانيَّةﷺ في قوله:

---

(١) قال الحافظ السَّخاوي في «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشَّفيعﷺ» (ص١١٦-١١٧): ويروى عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال... ثم ذكر الحديث، ثم قال -السَّخاوي-: ذَكَرَه أبو القاسم السَّبتي (ت: ٦٧٧هـ) في كتابه «الدُّرُّ المنظَّم في المولد المعظَّم» له، لكنِّي لم أقف على أصله إلى الآن. انتهى

(٢) «أفضل الصَّلوات على سيِّد السَّاداتﷺ» الصلاة السَّادسة.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدُنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ شَجَرَةِ الأَصْلِ النُّورَانِيَّةِ وَلَمْعَةِ الْقَبْضَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَأَفْضَلِ الْخَلِيقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَأَشْرِفِ الصُّورَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ).

❁ ❁ ❁

الفصل السَّادس عشر:

إنَّ مفارقةَ روحِه لجسدهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.. أمرٌ قد حصلَ وتحقَّقَ في هذ الحياة الدُّنيويَّة، وهو يومٌ أظلمت فيه الأرضُ كما وصفه سيدنا أنس رضي الله عنه[١].

لكنَّ روحهﷺ بعد مفارقتها للبدن لحظةَ وفاتِه.. رُدَّت إليه صلَّى الله عليه وسلَّم.

قال الإمام أبو بكر البيهقيُّ رضي الله عنه في «**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**»:

والأنبياءُ عليهم السَّلام بعدما قُبضوا.. رُدَّتْ إليهم أرواحُهُم؛ فهم أحياءٌ عند ربِّهم كالشُّهداء، وقد رأى نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم جماعةً منهم ليلةَ المعراج، وأَمَرَ بالصَّلاةِ عليه والسَّلامِ عليه، وأخبرَ - وخبرُه صِدقٌ - أنَّ صلاتَنا

(١) وهو ما رواه الترمذي (٣٦١٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه أنه قال: (لَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ).

مَعروضةٌ عليه وأنَّ سلامَنا يَبلُغُه، وأنَّ اللهَ حرَّمَ على الأرضِ أنْ تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ. انتهى[١]

قال الإمام القرطبيُّ رحمه الله في «**التذكرة**»:

وقد أخبرنا النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما يقتضي أنَّ الله تبارك وتعالى يَردُّ عليه روحَهُ؛ حتَّى يردَّ السَّلامَ على كلِّ مَن يُسلِّمُ عليه، إلى غير ذلك ممَّا يحصُلُ مِن جُملته القَطعُ بأنَّ موتَ الأنبياءِ.. إنَّما هو راجعٌ إلى أنْ غُيِّبوا عنَّا بحيث لا نُدرِكُهم وإنْ كانوا موجودينَ أحياء؛ وذلك كالحالِ في الملائكة فإنَّهم موجودونَ أحياء ولا يراهم أحدٌ مِن نوعِنا إلَّا مَن خَصَّه اللهُ بكرامةٍ مِن أوليائهِ. انتهى[٢]

وقال الشَّيخ تقي الدين السُّبكي رحمه الله تعالى:

حياةُ الأنبياء والشُّهداء في القبر.. كحياتهم في الدنيا، ويشهد له صلاةُ موسى -عليه السَّلام- في قبره؛ فإنَّ الصَّلاةَ تستدعي جسداً حيّاً، وكذلك الصِّفات المذكورةُ في الأنبياء ليلةَ الإسراءِ.. كلُّها صفاتُ الأجسامِ، ولا يلزمُ

(١) «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث» (ص٣٠٥) للحافظ أبي بكر البيهقي رحمه الله.

(٢) «التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص٤٦٠) للإمام القرطبي رحمه الله.

مِن كونها حياةً حقيقيَّةً أنْ تكونَ الأبدانُ معها كما كانت في الدُّنيا مِن الاحتياجِ إلى الطَّعام والشَّراب، وأمَّا الإدراكاتُ كالعلمِ والسَّماعِ.. فلا شكَّ أنَّ ذلك ثابتٌ لَهم ولِسائرِ المَوتى. انتهى[١]

وقال الحافظ السُّيوطي رحمه الله: حياة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في قبرِه هو وسائرِ الأنبياءِ.. معلومةٌ عندنا عِلماً قطعيَّاً؛ لِما قام عندنا مِن الأدلَّة في ذلك وتواترتِ الأخبارُ. انتهى[٢]

وقد أخبرنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الله يرُدُّ له روحَه الشَّريفةَ إلى جسده صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليردَّ سلامَ مَن سلَّم عليه من أمَّته؛ حيث قالﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»[٣]

ولهذا الحديث وجوهاً من التَّفاسير توافق المتواترَ ممَّا وردَ مِن أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم حيٌّ في قبره حياةً حقيقيَّةً، وقد جمع الحافظ السيوطي هذه الوجوه برسالة أسماها بـ«**إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء**» ومن أهم تلك الوجوه وأقواها قوله:

---

(١) نقله الحافظ السيوطي رحمه الله في «إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء» انظر «الحاوي للفتاوي» (٢/ ١٥٢).

(٢) انظر «إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء» من مجموع «الحاوي للفتاوي» (٢/ ١٤٧) للحافظ السيوطي رحمه الله.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٤١) وغيره من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إنَّ قوله: «**ردَّ الله**» جُملةٌ حاليَّةٌ، وقاعدةُ العربيَّةِ: إنَّ جملةَ الحالِ إذا وقعت فعلاً ماضياً.. قُدِّرَتْ فيها (**قَدْ**) كقوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النِّسَاء: ٩٠] أي: **قد** حصِرت.

وكذا تُقدَّرُ هنا، والجملةُ ماضية سابقة على السَّلام الواقع مِن كلِّ أحدٍ، و«**حتى**» ليستْ للتَّعليلِ؛ بل مجرَّد حرفِ عطفٍ بمعنى الواو، فصارَ تقديرُ الحديث: (ما مِن أحدٍ يسلِّمُ عليَّ.. إلا **قَدْ** ردَّ اللهُ عليَّ رُوحيَ قبلَ ذلكَ **فأردَّ** عليه).

وإنَّما جاءَ الإشكالُ مِن ظَنِّ أنَّ جملةَ «**ردَّ اللهُ عليَّ**» بمعنى الحال أو الاستقبال، وظنِّ أنَّ «**حتَّى**» تَعليليَّة! وليس كذلك.

وبهذا الذي قرَّرناهُ.. ارتفع الإشكالُ مِن أصلِهِ، وأيَّده مِن حيث المعنى؛ أنَّ الرَّدَّ لو أُخِذَ بمعنى الحالِ أو الاستقبال.. لَزِمَ تكرُّره عند تكرُّرِ المُسَلِّمينَ، وتكرُّرُ الرَّدِّ يستلزمُ تكرارَ المُفارقةِ، **وتكرارُ المُفارقةِ.. يلزم عليه محاذير:**

أحدهما: تأليمُ الجسدِ الشَّريف بتكرارِ خروجِ الرُّوحِ منهُ، أو نوعٌ ما مِن مُخالفةِ التَّكريم إنْ لَمْ يكن تأليم!

والآخَرُ: مُخالَفةُ سائرِ النَّاس، الشُّهداءِ وغيرِهم؛ فإنَّه لَم يَثبت لأحدٍ منهم أنْ يتكرَّرَ له مُفارَقةُ الرُّوحِ وعَودُها في البرزخِ، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم.. أولى بالاستمرارِ الذي هو أعلى رتبةً.

ومحذورٌ ثالثٌ: وهو مُخالفةُ القرآنِ؛ فإنَّه دلَّ على أنَّه ليسَ إلَّا مَوتَتانِ وحياتانِ، وهذا التَّكرار يستلزمُ مَوتاتٍ كثيرةً وهو باطلٌ.

ومحذورٌ رابعٌ: وهو مُخالَفة الأحاديثِ المُتواترةِ السَّابقةِ، وما خالَفَ القرآنَ والمُتواتِرَ مِن السُّنَّةِ.. وجبَ تأويلُهُ، وإنْ لَمْ يَقبل التَّأويلَ.. كان باطلاً؛ فلهذا وجبَ حملُ الحديثِ على ما ذكرناه. انتهى[(١)]

ومِن جملة ما ذكره العلماء مِن وجوهٍ لبيان معنى هذا الحديث قولُهم:

إنَّ الزَّمان لا يخلو مِن مُصلٍّ ومُسلِّمٍ عليه في أقطار الأرضِ -مِن الإنس أو الملائكة أو الجنِّ أو أيٍّ ممَّن خلقَ اللهُ من عوالمَ-؛ فلا يخلو مِن كون الرُّوح في بدنه الشَّريف صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليردَّ على كلٍّ منهم؛ فروحهُ بعدَ مفارقتِها التي حصلت لحظةَ الموتِ.. رُدَّت إليه صلَّى الله عليه وسلَّم.

---

(١) انظر «إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء» من مجموع «الحاوي للفتاوي» (٢/ ١٥٠) للحافظ السيوطي رحمه الله.

ذكر الإمامُ الطِّيبي رحمه الله تعالى **معنى جليلاً آخر ، فقال:**

لعل معناه: تكون روحُهُ القُدسيَّةُ في شأنٍ ما في الحضرة الإلهيَّة؛ فإذا بَلَغَهُ سلامُ أحدٍ مِن الأُمَّةِ.. رَدَّ اللهُ روحَه مِن تلك الحالةِ إلى رَدِّ سلامِ مَن سلَّم عليه، وكذا شأنُه وعادتُه في الدُّنيا، يُفيضُ على أُمَّتِهِ مِنْ سُبُحاتِ الوحيِ الإلهيِّ ما أفاضَهُ اللهُ عليه، ولا يَشغلُهُ هذا الشَّأنُ -وهو شأنُ إفاضةِ الأنوارِ القُدسيَّةِ على أُمَّتِهِ- عنْ شُغلِهِ بالحضرةِ، كما كانَ في عالَم الشَّهادةِ لا يَشغلُهُ شأنٌ عن شأنٍ. انتهى(١)

قلتُ: إنَّ روحَهُ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مُتَّصلةٌ بعمودِ نورِ إيمانِهِ ﷺ مِن جسدِهِ الشَّريفِ في قبرِهِ المُنيفِ؛ إلى قُبَّةِ البَرزخِ؛ فلا يشغلُه شأنُه في قبرِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم -مِن ردِّ السَّلامِ والقِيام في صلواتِهِ وغير ذلك- عن شأنِهِ في البرزخ الأعلى في الحضرة القُدسيَّة.

فائدة: قال وليُّ الله سيدي الغوثُ عبدُ العزيز الدَّباغ قدَّس الله سرَّه:

فعمودُ نورِ إيمانِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.. مُمتَدٌّ مِن القبرِ الشَّريفِ إلى قُبَّة البَرزخِ التي فيها روحه الطَّاهرة، وتأتي الملائكةُ زُمَراً زُمَراً وتطوفُ بذلك النُّورِ

---

(١) نقله الإمام المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٥/ ٤٦٧).

الشَّريفِ المُمتَدِّ، وتَمَسَّحُ بهِ، وتَتَطارَحُ عليهِ تَطارُحَ النَّحلةِ على يَعسوبِها؛ فكلُّ مَلَكٍ عَجزَ عن سِرٍّ أو عن تَحَمُّلِ أمرٍ، أو حصلَ له كَلَلٌ، أو وقوفٌ في مَقامٍ.. فإنَّه يجيءُ إلى النُّورِ الشَّريفِ ويطوفُ بهِ؛ فإذا طافَ بهِ.. اكتَسَبَ قوَّةً كامِلَةً وجُهداً عظيماً مِن نُورهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فيرجعُ إلى مَوضعِهِ وقد قَوِيَ أَمرُهُ. انتهى[1]

قلتُ: فأدرك -أخي المُحب- هذا السِّرَّ العجيب، وطُفْ بروحك وفكرك عنده صلَّى الله عليه وسلم ولَن تخيب، متوسلاً بهذا النَّبيِّ الحبيبﷺ؛ وابشر مِن الله الكريم بالفتح والفرَجِ القريب.

❁ ❁ ❁

(١) انظر «الإبريز» عند الباب العاشر.

الفصل السَّابع عشر:

سُئلَ سيدي الغوث عبد العزيز الدبَّاغ رضي الله عنه:

سيدي هل استحضارُ صورةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في ذهن المُؤمنِ وتَشخُّصه إيَّاها.. هو مِن عالَم الرُّوحِ، أو مِن عالَم المِثالِ، أو مِن عالَم الخيال؟

وهل الصُّورة الذِّهنيَّة وما اشتملتْ عليه مِن تعقُّلِ المُحادثةِ والمُكالَمةِ.. محفوظٌ صاحبُها مِن الشَّيطانِ مثلَ الرُّؤيا المناميَّة؛ عملاً بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**مَن رآني فقد رأى حقّاً فإنَّ الشَّيطانَ لا يَستطيعُ أنْ يَتَمَثَّلَ بِيْ**» أو كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام، أو هي ليست مثلها؟ أجيبوا مأجورين ولكم أزكى تحيَّةٍ وسلامٍ.

فأجاب رضي الله عنه:

بأنَّ ذلك الاستحضارَ.. مِن رُوح الشَّخصِ وعقلِهِ؛ فمَن توجَّهَ بفكره إليه صلَّى الله عليه وسلَّم.. وقعت صورتُه في ذهنِهِ:

فإنْ كان ممَّن يعلَم صورتَه الكريمةَ -لكونه صحابيًّاً، أو مِن العلماءِ الذين عنوا بالبحث عنها ثمَّ حصَّلوها-.. فإنها تقع في فكرهِ على نحو ما هي عليهِ في الخارجِ.

وإن كان مِن غيرِ هذينِ.. فإنَّه يَستحضِرهُ في صورةِ آدميٍّ في غايةِ الكمالِ في خَلْقه وخُلقه، فقد تُوافِقُ الصُّورةَ التي في فكرهِ ما في الخارج، وقد تُخالفه.

والحاضِرُ في الفِكر.. هو صورةُ ذاتِه صلَّى الله عليه وسلَّم لا صورةَ روحِهِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ الذي شاهدَهُ الصَّحابةُ رضي الله عنهم وأخبرَ عنه العلماءُ.. هو الذَّاتُ لا الرُّوح الشَّريفة، ولا يجولُ الفكرُ إلَّا فيما يعلمُهُ الشَّخصُ ويَعرِفُه.

فقولكم: (هل هو مِن عالَم الرُّوح؟)؛ إنْ أردتم به الاستحضارَ.. فهو مِن عالَم الرُّوحِ، **أي**: مِن رُوح التَّفكُّرِ، وإنْ أردتم به الحاضِرَ -أي: فهل الحاضرُ في أفكارنا روحُه صلَّى الله عليه وسلَّم- فقد سبق أنَّه ليس إيَّاها.

وأما المحادثة والمكالَمة إذا حصلت لهذا المُتفكِّرِ:

فإن كانت ذاتُه طاهرةً وتُحبُّها روحُه، ولَم تُحجَب عنها أسرارُها، وكانت معها كالخليلِ مع خليلِهِ.. فالمُحادَثة معصومةٌ، وهي حقٌّ.

وإن كانت الذَّاتُ على العكس.. فالأمر على العكسِ، واللهُ المُوفِّقُ. انتهى

ثم قال تلميذُه سيدي أحمد ابن المبارك رضي الله عنه:

وقد ذكرتُ له رضي الله عنه ذات يومٍ: أنَّ بعضَ الصَّالحين كان يذكُرُ مع جماعةٍ مِن أصاحبه، ثمَّ إنَّ بعضَهم تبدَّلَ لونُهُ، وتغيَّرَ حالُهُ، وبدَّلَ جِلسَتَهُ! فقيل له: لم فعلتَ هذا؟ فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحُجُرَات : ٧] يُريد أنَّ النَّبيَّ ﷺ حضرَهم في تلك السَّاعةِ، وأنَّه شاهدَ ذلكَ.

فقلتُ للشَّيخ رضي الله عنه: هل هذه المُشاهدةُ التي وقعت لهذا الرَّجلِ مشاهدةُ فتحٍ أو مشاهدةُ فِكرٍ؟!

فقال: مشاهدةُ فكرٍ، لا مشاهدة فتحٍ، ومُشاهدةُ الفِكر وإن كانت دون مشاهدةِ الفَتح إلَّا أنَّها لا تقعُ إلَّا لأهلِ الإيمانِ الخالِصِ، والمَحبَّةِ الصَّافيةِ، والنِّيَّةِ الصَّادقةِ.

وبالجملة: فهي لا تقعُ إلَّا لِمَن كمُلَ تعلُّقُهُ بالنَّبيِّ ﷺ، وكَم مِن واحدٍ تقعُ له هذه المُشاهدةُ.. فيظنُّها مشاهدةَ فتحٍ، وإنَّما هي مشاهدةُ فكرٍ!

وهذا القِسمُ الذي تقع له هذه المُشاهدةُ -وهو غيرُ مفتوحٍ عليه- إذا قِيسَ مع عامَّةِ المؤمنينَ.. كانوا بالنِّسبةِ إليه كالعدمِ، ويكونُ إيمانُهم بالنِّسبةِ إلى إيمانِهِ.. كلا شيء، والله تعالى أعلم.

قال الشَّيخُ عبدُ العزيز رضي الله عنه: ينبغي أنْ تكون هذه المحبةُ بين المُريدِ والشَّيخ؛ فإنَّها نافعةٌ جداً.

قال: إنَّ أهلَ هذه المحبَّةِ.. يضرُّونَ وينفعونَ كما يقع ذلكَ مِن أهلِ التَّصرُّفِ. **ويقول**: أنَّ نارَ المَحبَّةِ إذا شَعَلَتْ.. لا يردُّها شيءٌ. انتهى(١)

قلتُ: سأُوافيكَ في هذا الفصل -الذي هو من أنفع الفصول إن شاء الله- بأقوالِ أهلِ المعرفة في شأن استحضارِ صورةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّها مِن أهمِّ المُهمَّات للسائرين وأوكدِها، وأعظمِ الوسائل للسالكين وأسعدها.

قال سيِّدي الشَّهيد أبو الفيض مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتَّاني رضي الله عنه في كتابه «**الفَرقُ بين الواردات**» عند كلامه عمَّا ينبغي للذَّاكر فعلَه:

(١) انظر «الإبريز» في الباب الخامس.

يشتغل الذَّاكرُ بملاحظة النُّور الأعظم المُحَمَّدي قبلَ الذِّكر وحِينَه، ويتخيَّله أوَّلاً مُحدِقاً به ومُحيطاً به، ومُكثِّفاً له[1] مِن جميعِ جِهاته؛ لأنَّه الدَّليل، والرَّفيقُ قبلَ الطَّريقِ، والجارُ ثُمَّ الدَّار.

ويَجتهدُ في استحضارِ الهِمَّةِ المُحَمَّديَّةِ معهُ مِن كلِّ جِهاته، ولا يَثبُتُ مع هِمَّتِهِ -صلَّى الله تعالى عليه- سِوىً ولا غَيرٌ، ولا أكدارٌ ولا أغيارٌ، ولا سَلاطاتٌ ظُلمانيَّةٌ[2]، ولا تَسَوُّراتٌ رَجيميَّةٌ؛ لأنَّ القلبَ بمثابةِ السَّماءِ، وقدْ كان عالَمُ الأفلاكِ -قبلَ قدومهِ صلَّى الله تعالى عليه لعالَم الشَّهادةِ- غيرَ مَصونٍ مِن النُّفوذِ الشَّيطانيِّ؛ فلمَّا بعثَهُ سبحانه.. قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨-٩].

وكذلكَ القلبُ **قَبْلَ اسْتِحكام مُصاحبَةِ نُورهِ** صلَّى الله تعالى عليه معهُ، وتمكينِ الرَّوابطِ المَعنويَّةِ معه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم وعلى آله.. للشَّيطانِ النُّفوذُ الكُلِّيُّ فيه، حتَّى لا يجدَ للعبادةِ لذَّةً ولا طَعماً ولا ذَوقاً.

---

(١) كذا في المطبوع، ولعلها: (مُكتنِفاً له) بدل: (ومكثِّفا له) والله أعلم.

(٢) أي شدائد قهريَّة ظُلمانيَّة.

وأمَّا إذا استحكمَتْ مصاحبتُهُ -صلَّى الله تعالى عليه- البَرزخيَّةُ في سِرِّكَ؛ بحيثُ لَمْ تَزَلْ تَستحضِرُهُ وتَتَكَلَّفُ إحضارَ صورتِهِ الكريمةِ في عالَمِ خَيالِكَ إلى أنْ تأخذَها مِرآتُكَ فتحفَظَهَا.. فهُنالِكَ يُحفَظُ باطِنُكَ مِن الأغيارِ والأكدارِ، والتَّشويشاتِ والتَّغييراتِ والتَّفريقاتِ؛ بسببِ دخولِ النُّورِ المُحَمَّديِّ للقلبِ؛ إذ هو -صلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلَّم- الإنسانُ الكاملُ.

فقصرُ النَّظر عليه.. مُتَضَمِّنٌ للتَّوجُّهِ للعالَمِ الأكبرِ والأوسطِ والأصغرِ؛ بل الحقائق الإلهيَّة.

فمِن هناكَ: كان حفظُ صورتهِ الكريمةِ في مِرآةِ القلبِ.. يَتضمَّنُ حفظَ الباطنِ مِن الأغيارِ؛ لأنَّ الإنسانَ الكاملَ.. هو الجامعُ لجميع العوالمِ الإلهيَّةِ والكونيَّةِ، الكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، وهو كتابٌ جامعٌ للكتبِ الإلهيَّةِ والكونيَّة.

إلى أن قال: فهو الصُّحُفُ المُكرَّمةُ، المَرفوعةُ المطهَّرةُ، التي لا يمَسُّها ولا يُدرِك أسرارَها.. إلَّا المُطهَّرونَ مِن الحُجُبِ الظُّلمانِيَّةِ.

[كيف يستعان على استحضار صورتهﷺ في الذِّكر]:

ويُستعانُ على هذا بأمورٍ:

مِنها: مَعرفَة الشَّمائلِ المُحَمَّديَّةِ والتَّغَلْغُلُ فِيها، وإِدمانُ مُخَالَطَتِها حتَّى تُرْسَمَ تِلكَ الصُّورةُ الكريمَةُ المُحَمَّديَّةُ التي لا يتمثلُ الشَّيطانُ بِها في مِرآتِكَ:

إِذَا مَا الشَّـــوْقُ أَقْلَقَنِي إِلَيْهَا ... وَلَمْ أَظْفَرْ بِمَطْلُوبِي لَدَيْهَا

نَقَشْـــتُ مِثَالَهَا فِي الكَفِّ نَقْشـاً ... وَقُلْتُ لِنَاظِرِيْ قَصْـراً عَلَيْهَا

يُمثِّلُكَ الفِكْرُ المُرَوَّعُ فِيْ النَّوَىْ ... وَأَرْتَاحُ إِذْ يَبْدُوْ خَيَالُكَ فِيْ فِكْرِيْ

ومنها: عدَمُ الخُروجِ عن السُّنَّةِ المُحَمَّديَّةِ ظِلَّ نَفَسٍ -في العاداتِ والعِباداتِ والمُعاملاتِ والمُعتقَداتِ-؛ فإِنَّه بهذا تَتوفَّرُ له الأنوارُ، ويقرُبُ مِن عالَمِ المَعاني، ويَتباعدُ عن عالَمِ الأَكدارِ؛ لأَنَّ السُّنَّةَ المُحَمَّديَّةَ هي في الحقيقةِ.. صورةُ سَيْرِ العالَمِينَ إلى رَبِّهم سبحانَهُ، لو تَمَّ لهم التَّوفيق.. لَمَا انْقَطَعَ أَحَدٌ، ولَوَصَلَ الجميعُ؛ لأَنَّها لا يُوصَلُ بِغَيرِها، وهي عنوانُ الوصولِ، وهي مِعْصَمُ الوصولِ، وهي الضِّياءُ في مُدْلَهِمَّاتِ الحَوَالِكِ السَّيريَّةِ والدَّهريَّةِ ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عِمْرَان: ٣٢] فتأمَّلْ جلالَةَ النُّبوَّةِ في هذهِ الآيةِ الكريمَةِ، وهذا التَّوعُّدَ العظيمَ على الإعراضِ عن السُّنَّةِ المُحَمَّديَّةِ.

ومنها: عدمُ الغَفْلَةِ عن الصَّلاةِ على مَركَزِ دائرةِ الأنوارِ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم وعلى آله في كلِّ حِيْنٍ، فَبِهَا تَقْوى الرَّابِطَةُ معه صلَّى الله تعالى عليه، معَ استحضارِ مُجالَسَتِهِ صلَّى اللهُ تعالَى عليه؛ لأَنَّهُ جَلِيْسُ المُصَلِّيْنَ عَلَيهِ؛ فإنَّه سبحانَه أَدَّبَهُ فأَحْسَنَ تأدِيْبَهُ، ولَيْسَ التَّأديبُ إلَّا بالتَّخلُّقِ بأخلاقِ اللهِ تعالَى، وهو تعالَى جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَهُ، فهُوَ صلَّى الله تعالى عليه.. جَلِيْسُ مَنْ صلَّى عَلَيهِ. انتهى[١]

وقال الإمام العارف أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد السَّاحلي الأنصاري المالِقي الأندلسي رضي الله عنه (ت: ٧٥٣هـ) في كتابه العظيم «**بغية السَّالك في أشرف المسالك**»:

ومن لازِمِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ.. تَجلِّي صورته الكريمة في باطن المُصلِّي عليه[٢].

وقال فيه أيضاً رضي الله عنه: اعلم أنَّ ثمرةَ مَقصِدِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ.. انطباعُ صورتِهِ الكريمةِ في النَّفْس انطباعاً ثابتاً مُتأصِّلاً مُتَّصِلاً؛ وذلكَ أنَّ المُداومَةَ على الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ بإخلاصِ القصدِ، وتحصيلِ الشُّروطِ

(١) «الفرق بين الواردات الرَّحمانيَّة والمَلَكية والنَّفسانيَّة والشَّيطانيَّة»(ص١٣٨-١٤٠).

(٢) «بغية السَّالك في أشرف المسالك» (٢/ ٧٦).

والآدابِ، وتدبُّرِ المَعنى حتى يتمكَّنَ حُبُّهُ مِنَ الباطِنِ تَمَكُّناً صادِقاً خالصاً.. تَصِلُ بين نَفْسِ الذَّاكرِ وبَين نَفْسِ النَّبيِّ ﷺ، وتؤلِّفُ بينهما في محلِّ القُرب والصَّفا؛ بحسب تمكُّنِ حُبِّهِ مِنَ النَّفْسِ؛ فـ «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[1]، والحُبُّ يوجِب الاتباعَ للمحبوبِ، والاتباعُ يُؤذِنُ بالوصل. قال الله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء : ٦٩]، و«**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[2].

فإذا تمكَّن حُبُّ النَّبيِّ ﷺ مِن النَّفْس.. لَمْ تَغِبْ صورتُهُ الكريمةُ عن عَين البَصيرةِ لَمحَةً، وهي الرُّؤيَةُ الحقيقيَّةُ؛ لأنَّ رُؤيَةَ البَصَرِ إنَّما هي لِتؤدِّي حقيقةَ المُبصَرِ إلى عَين البَصيرة، فيحصُلُ عند البَصيرةِ الاطلاعَ على حقيقةِ ما أدَّاه إليها البصرُ مِن المُبصَراتِ.

ولا شكَّ أنَّ الصَّلاةَ على النَّبيِّ ﷺ إذا خَلصَ مَشربُها.. سَطعت أنوارُها في الباطِنِ؛ فصارتِ النَّفْسُ مِرآةً لصورتهِ، لا تغيبُ عنها، وهو العِلْم اليقينيُّ الذي لا شكَّ فيه. وما [إنْ] قَرُبَ السَّنَدُ.. بَعُدَ عن العِلْمِ تَطرُّقُ الظُّنونِ.

---

(١) متَّفقٌ عليه: البخاري (٦١٦٩)، مسلم (٢٦٤٠).

(٢) متَّفقٌ عليه: البخاري (٣٣٣٦)، مسلم (٢٦٣٨).

وفَرْقٌ بين مَن يروي عن بَصَرِهِ، ومَن يروي عن بَصيرتهِ، ومع ذلك؛ فرؤيةُ البَصَرِ ربَّما داخَلَتها الأوهامُ، ورؤيةُ البَصيرةِ الصَّافيةِ.. لا وهْمَ فيها ولا خيال، فأفهم هذه الإشارةَ، وأعلمْ حقيقةَ هذه العبارة.

ثم قال رضي الله عنه:

النَّاس في انطباع الصُّورةِ الكريمةِ في النَّفْس على طبقاتٍ، بحسب مَشاربهم وأذواقهم في الصِّدقِ والحُضور:

فمنهم مَن لا تثبت الصورة الكريمة في نفسه إلَّا بَعد تأمُّلٍ وتَثبُّتٍ وإِعمالِ فكرٍ، وهذا أضعفُ القوم؛ لِتعلُّقِ بعض البَقايا الخَاصَّةِ بهذا المَنزلِ بالنَّفْسِ، وهذا قليلُ الرُّؤيةِ إيَّاهُ في النَّومِ، وإنْ رآهُ.. فإنَّما يراهُ على غيرِ كمالِ الرُّؤيةِ.

ومنهم مَن تَثْبُتُ الصُّورةُ الكريمةُ في نَفْسِهِ أحيانَ ذِكْره إيَّاهُ، لا سيَّما في الخَلَواتِ عندما يتمحَّضُ الفِكرُ في معنى التَّصْلِيَةِ، فإذا فَتَرَ.. غابت عنه، وهذا أنهضُ مِن الأَوَّل؛ لكن مع بقيةٍ فيه مما يقتضيه مَنزِلُهُ، وهذا يراه في النَّوم على صورته الكاملةِ، راغباً به عن رُؤيتهِ بحسبِ استصحابِ حضورهِ في فِكرهِ.

ومنهم مَن إذا سَدَّ عَينَيهِ بالنَّومِ وغاب قليلاً عن الحِسِّ.. رآه في أغلبِ أحوالِه.

ومنهم مَن إذا سَدَّ عَينَيهِ -يقظةً أو نوماً-.. رآهُ بعين بصيرتهِ وعلى كلِّ حال، وهم أهلُ النِّهاياتِ الذين اطمأنتْ قلوبُهم بذِكر الله؛ حتَّى رَقَتْ نفوسُهم إلى فراديسِ التَّقريب، وظفِروا بمجاورةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩]. ولا يَبعُدُ عليك هذا المَرمى، ولا يُشكِلُ عليك هذا المَسلكُ إذا فهمتَ سِرَّ قوله ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»(١).

ووراءَ هذا ما هو أعلى درجةً منه:

وهو أن يراهُ بعَينِ رأسهِ عياناً في عالَم الحِسِّ، ولا تُنكِرْ هذا، فقد يُكرم اللهُ مَن يشاء مِن عبادهِ بإقامةِ صورتهِ الكريمةِ لهُ حتى يشاهدَها، وهذا مِن جائزِ الكراماتِ التي يُتحفُ الله بها أوليــاءَه.

وما يختلفُ مِن أحوالِ رؤيتهِ ﷺ مِن خفاءٍ ووضوحٍ، وقُربٍ وبُعدٍ، وتغييرٍ وتعديلٍ.. إنَّما ذلكَ راجعٌ إلى حالِ السَّالكِ؛ بحسب قوَّةِ الحُبِّ وضَعفهِ، واعتدالِ الاتِّباعِ ومَيلهِ. انتهى(٢)

---

(١) متَّفقٌ عليه: البخاري (٣٣٣٦)، مسلم (٢٦٣٨).

(٢) «بغية السَّالك في أشرف المسالك» (١/ ٢٤٦-٢٤٨).

فائدة عزيزة:

ومما نقله الإمام أبو عبد الله السَّاحليُّ رضي الله عنه في كتابه هذا؛ **طريقة الجمع بين الحقيقة والشَّريعة**، فقال:

والجمعُ بين الحقيقةِ والشَّريعةِ.. مِن الأمورِ التي يدِقُّ معناها ويَصعُبُ مَرامها، والعثورُ على ذلك بسرعةٍ وسهولةٍ.. إنَّما يكونُ بالإدمانِ على ذكرِ النَّبيِّ ﷺ، فبِهِ تفيضُ أنوارُ الهدايةِ على البصائرِ؛ فتنجلي مرآةُ الباطنِ ويَتَشَحَّرُ إبريزُ الذِّكرِ، وتصحي سماءُ الإدراكِ، فيسهُلُ الجَمعُ بينَ الحقيقةِ والشَّريعةِ؛ فَيُقيمُ العدلَ في ذلك بتوفيةِ وظائفِ الحقيقةِ، والقيامِ برسومِ الشَّريعةِ. انتهى[1]

❁ ❁ ❁

(١) «بغية السَّالك في أشرف المسالك» (١/ ٣٢٠-٣٢١).

الفصل الثَّامن عشر:

إدمانُ النَّظرِ وجولانُ الفكر في محاسِن خلقته الشَّريفة صلَّى الله عليه وسلَّم، وتصوُّرُها بين العَينين، وملاحظتُها في كلِّ وقتٍ وحِين؛ حتى يتمكن العبدُ المنوَّرُ مِن دوام استحضارها.. يُلحقُ العبدَ -كما قال العارفُ الجيليُّ- بدرجةِ المُشاهِدين لهﷺ؛ فيفوز بالسَّعادة الكبرى، وإن لم يستطع على الاستحضار على الدَّوام.. فلا أقلَّ من أن يستحضر هذه الصُّورة الشريفة بما لها من الكمال عند الصَّلاة عليهﷺ.

قال الشيخ عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه في كتابه «**قاب قوسَين وملتقى النَّاموسَين**»:

وقد انسدَّ في الظاهر كلُّ طريقٍ غير طريقهﷺ، وانغلقَ في الباطن كلُّ بابٍ غير باب تحقيقهِ، فلا سبيلَ إلى نيلِ السعادة الكبرى إلا بوسيلته، ولا وصولَ إلى الزلفة العليا إلا بواسطة فضيلته، وكلُّ وليٍّ إنَّما يستمطرُ سحابَها ويستهلُّ عُبابَها.

وكلُّ مَن ظنَّ أنَّه يعرجُ بغير وساطته.. فإنَّما صعودُه هبوطٌ في سجنه وحُثالتهِ.

فعليكم بالتَّعلقِ بجنابهِ الرَّفيع، والتَّمسكِ بالعروة الوثقى من جاهه المَنيع، مع دوام استحضار تلك الصورة الكاملة التي هي لمعاني الوجودِ وصُوَرِه جامعةٌ شاملة؛ حتى تُفيضَ لكم مِن حُبِّه شراباً معنوياً تنتعشُ به الأرواحُ والأشباحُ، مُذهِباً ومُعدِماً أطلالَكم والرُّسوم؛ فتذهبونَ ويكونﷺ فيكم عِوضاً عنكم؛ لتنالوا حينئذٍ بقابليَّةِ حقيقته المُشرقة بوجودِكم مالَم يَنَلهُ كونٌ مِن الأكوان في معرفةِ مَعبودكم؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى.. خصَّ محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّجلِّياتِ الكاملة الكبرى؛ فإذا أشرقت أرضُ وجودِكم بنور شمسهِ الظَّاهرة، واستنشقت مَشام أرواحِكم مِن خُزامى تلك الرِّياض النَّاضِرة.. استوت ذواتُكم بنصيبها مِن قابليَّتهِ على بعض تلكَ المَجالي؛ فأصبحت إلى ربِّها ناظرة. انتهى[1]

قلتُ:

وها أنا أُلخِّصُ لك ما قاله الشَّيخ في طريقةِ التَّعلُّق بجنابه والعكوفِ على بابه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليكون هذا ختامُ هذه الرِّسالة بإذن الله:

---

(١) «قاب قوسَين وملتقى النَّاموسَين» (ص٣١) باختصار.

قال **الشَّيخ عبد الكريم الجيليُّ** قدَّس الله رُوحه:

في كيفيَّة التَّعلُّق بجنابه والعكوفِ على بابه صلَّى الله عليه وسلَّم:

لمَّا كان صلَّى الله عليه وسلَّم واسطةَ الجميع في البداية لأجل الظُّهور.. كان واسطتهم في النِّهاية لأجل النَّعيم المُقيم، فما ثَمَّ وسيلة ولا واسطة ولا علَّة لوجودك ووجود كلِّ خيرٍ لكَ ولكلِّ موجود.. إلَّا هو صلَّى الله عليه وسلَّم، فمِن الأَولى أنْ تتعلَّق بجنابه وتعتكفَ على بابِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ولهذا كان دأبُ الكُمَّل من الأولياءِ رضوان الله عليهم أن يتعلَّقوا بجنابه، ويحطُّوا جباههم على بابهﷺ ولم يزل ذلك دأبهم ودأبُ كلِّ مَن أراد اللهُ تكميله.

فإن قلتَ: لا أدري كيف هذا التَّعلُّق والملازمة بهذا الجناب العظيم والنَّبيِّ الكريمﷺ؟!

قلنا: التَّعلُّق به صلَّى الله عليه وسلَّم على نوعَين:

الأوَّل: التَّعلُّقُ الصُّوري بالجناب النَّبويِّﷺ.

الثاني: التَّعلُّق المَعنوي بالجناب المُحمَّديِّﷺ.

أما النوع الأول الذي هو التعلُّق الصُّوري بالجناب المحمَّديﷺ:

فهو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الاستقامة على كمال الاتِّباع له بمواظبة ما أمر به الكتاب والسُّنَّة قولاً وفعلاً واعتقاداً على ما هو عليه أحدُ الأئمَّة الأربعة، وقد وقع إجماع العلماء المحقِّقين بأنَّهم أهلُ الحقِّ وهم الفرقة النَّاجية إن شاء الله تعالى.

ومن كمال هذا القسم: اعتماد العزائم وعدم الرُّكون إلى الرُّخص وذلك بواسطة شيخٍ من أهل الله يدلُّك على ذلك ويُعرِّفك ما هو اللائق بك في كلِّ زمان مِن الأعمال والأحوال.

القسم الثاني: اتِّباعهُ صلَّى الله عليه وسلَّم بشدَّة المحبَّة والتَّعظيم لهﷺ حتى تجد ذوقَ محبَّتكَ له في جميع وجودكَ، وتولَّعْ بدوامِ ذِكر النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والتأدُّبِ معه والقيامِ بما أمر واجتنابِ ما نَهى.

ومِن جملة التَّعظيم لشأنهﷺ: التَّأدُّبُ مع أصحابه وأهل بيته بالمحبَّة والتَّعظيم والإيثار لهم، والتأدُّبُ مع كافَّة أهلِ الله؛ فإنَّ سوء الأدبِ معهم.. موجبٌ للبعدِ عن الله.

النَّوعُ الثاني الذي هو التعلُّق المَعنوي بالجناب المحمَّديﷺ:

كذلك هو على قسمَين:

القسم الأوَّل: دوامُ استحضارِ صورتهﷺ في الذِّهن كما هو موصوفٌ في الأحاديثِ، والتَّأدُّبُ لها حالةَ الاستحضارِ بالإجلالِ والتَّعظيمِ والهَيبةِ.

فإن لم تستحضر تلك الصُّورةَ البديعةَ المِثال وكنتَ قد رأيتَه وقتاً ما في نومكَ.. فاستحضرِ الصُّورةَ التي رأيتها في النَّوم.

فإنْ لم تكن رأيته قطُّ.. فاذكُره وصَلِّ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكن في حالِ ذكركَ.. كأنَّكَ بين يَديه في حياته مُتأدِّباً بالإجلالِ والتَّعظيمِ والهَيبةِ والحياءِ، فإنَّه يراكَ ويَسمعُك كلَّما ذكرتَه.

فإن لمْ تستطع أنْ تكونَ بين يدَيه بهذا الوصفِ وكنتَ قد زُرتَ يوماً ما قبرَه الشَّريفَﷺ، ورأيتَ روضتَه الشَّريفةَ، وقُبَّتَهُ العاليةَ المُنيفَةَ.. فاستحضر في ذهنكَ قبرَه الشَّريفَ وتلكَ الحضرةَ السَّنيَّةَ كلَّما ذكرتَهﷺ أو صلَّيتَ عليه، وكنْ كأنَّكَ واقفٌ عند قبره الشريفﷺ مع الإجلالِ والتَّعظيمِ على أنْ تشهدَ روحانيَّتهُ ظاهرةً لكَ.

فإن لم تكن زرتَ قبرَه الشَّريفَ ولا رأيتَ موطنَ حضرتهِ وروضتهِ.. فأدمِ الصَّلاةَ عليه وتصوَّر أنَّه يَسمعُكَ ﷺ، وكنْ إذ ذاكَ مُتأدِّباً جامعَ الهِمَّةِ؛ لتَصِلَ إليه صلاتُكَ عليه وأنتَ حاضِرٌ بقلبك لدَيه. فعليك بكلِّ ذلك ففيه السَّعادة الكبرى والمكانة الزُّلفى والله الموفِّق.

القسم الثاني: استحضار حقيقته الكاملة المُشرقةِ بنور الذَّات الإلهيَّة، والمُحيطةِ بكلِّ كمالٍ، والمُستوعبةِ لكلِّ فضيلةٍ في الوجود صورةً ومعنى، حُكْماً وعَيناً، غَيباً وشهادة، ظاهراً وباطناً[1].

فأوصيكَ يا أخي بدوام ملاحظةِ صُورتِهِ ومَعناه ﷺ ولو كُنتَ متكلِّفاً مُستحضراً، فعن قليلٍ تتألَّف روحُك به فيحضر لكَ ﷺ عياناً تجده وتحدِّثه وتخاطِبهُ؛ فيجيبكَ ويحدِّثكَ ويخاطبكَ ﷺ.

أما ثمرةُ ملازمةِ تلك الحضرة الشريفة والدَّوام على مشاهده تلك الصُّورة اللطيفة بمعانيها العزيزة المُنيفة، وثمرةُ ملاحظتِها كما تقدَّم ولو بالتَّصوُّر والتَّخيُّلِ والتَّفكُّر:

---

(١) قلت: وهذا القسم هو الذي بسطناه في متن هذه الرسالة من الفصل الخامس وإلى العاشر.

فاعلم أنَّ ثمرة العكوف عليهِ.. هي سببُ الوصولِ إليهﷺ؛ وذلكَ أنَّ المصلِّي عليه كثيراً.. لا بدَّ أن يتعلَّق به خاطرُه؛ فيتعشَّقَ قلبُهُ بالصُّورة الرُّوحانيَّةِ تعشُّقاً يوجبُ المحبَّةَ ودوام الذِّكر له بالصَّلاة عليهﷺ، وبذلك يَقرُبُ إليه ويكون عنده ومعهﷺ: «**أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً أَقْرَبُكُمْ مِنِّيْ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

فإذا كان هذا نتيجة الصَّلاة باللسان.. فما تكون نتيجةُ الصَّلاةِ بالقلب والرُّوحِ والسِّرِّ؟!

فإذا حصل هذا؛ فهل يكون إلا معه عند الله؟ لأنَّ نتيجة العمل الظاهر- وهو الصَّلاة عليهﷺ- القرب بالمكان وهو في الجنَّة، ونتيجة العمل الباطن - وهو التَّعلُّق والإقبال ودوام استحضار صورتهﷺ ومعناه- القربُ بالمكانةِ؛ وهو عند الله في مقعد صدقٍ حيث لا أين ولا كيف، فافهم.

واعلم أنَّ الوليَّ الكاملَ كلَّما ازدادَت معرفته بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.. كان أكملَ من غيره وأمكنَ في الحضرة الإلهيَّةِ وأدخلَ في معرفة الله تعالى على الإطلاق. انتهى(٢)

---

(١) أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «**إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً فِي الدُّنْيَا**» الحديث.

(٢) ملخَّصاً الباب السَّادس والسَّابع من كلام العارف عبد الكريم الجيلي في رسالته «قاب قوسَين وملتقى النَّاموسَين».

قال العبد الفقير راقِمُ هذه الرِّسالة:

تمَّت هذه الرسالة «**أم لم يعرفوا رسولَهم**» بفضل الله ومددِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، في يوم السبت، في الثَّامن والعشرين مِن شهر شعبان المكرَّمِ، من عام ١٤٤٥ للهجرة النبويَّة الشريفة على صاحب الذِّكرى أفضل الصَّلاة والسَّلام. الموافق للتَّاسع من شهر آذار لعام ٢٠٢٤م.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على حبيبه ومصطفاه، وألحَقَنا بجاهه الرَّفيع إلى التَّعلُّقِ به حتى ننال رضاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه. آمين

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

النَّفحات القدسيَّة ، من مجموع الرسائل الميرغنية، عبد الله الميرغني المحجوب (ت ١١٩٣هـ)، مجموعة نقشجم العلمية، ط (٧)، ٢٠١٨.

الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز، أحمد ابن المبارك الشيخ (ت ١١٥٦هـ)، بدون دار النشر، بدون بلد النشر، ط (١).

أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، ابن حجر الهيتمي المكي (ت ٩٧٤هـ)، تحقيق: احمد المزيدي، الكتب العلمية، بيروت.

أفضل الصَّلوات على سيِّد السَّادات صلى الله عليه وسلم، يوسف بن اسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠هـ)، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأنوار القدسية في شرح القصيدة الهمزية، أحمد ابن محمد ابن عجيبة أبو العباس (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: عبد السلام العمراني الخالدي، الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ٢٠١٩.

الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط (١)، ١٤٠١هـ.

البحر المديد تفسير القرآن المجيد، أحمد ابن محمد ابن عجيبة أبو العباس (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ط (١).

البرهان المؤيَّد، أحمد الرفاعي أبو العباس (ت ٥٧٨هـ)، تحقيق: عبد الغني نكه مي.

بغية السَّالك في أشرف المسالك، محمد الساحلي المالقي أبو عبد الله (ت ٧٥٣هـ)، تحقيق: أحمد التوفيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، المغرب.

التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد القرطبي شمس الدين (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط (١)، ١٤٢٥ هـ.

تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، الحرالي المراكشي أبو الحسن (ت ٦٣٨هـ)، تحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياط، تطوان، ط(١)، ١٩٩٧.

التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٩٨٣م.

التعظيم والمنَّة، علي بن عبد الكافي السبكي تقي الدين (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: علي أسعد رباحي، الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ٢٠٠٥.

التنبيه شرح الحكم العطائية، محمد ابن عباد النفري أبو عبد الله (ت ٧٩٢هـ)، تحقيق: أنس الشرفاوي، دار التقوى، سوريا، ط (١)، ٢٠٢١.

جلاء القلوب من الأصداء الغينية ببيان إحاطته صلى الله عليه وسلم بالعلوم الكونية، محمد بن جعفر الكتاني السيد (ت ١٣٤٥هـ)، تحقيق: حسن عباس زكي، ط (١)، ٢٠٠٤م.

جواهر المعاني وبلوغ الأماني، علي حرازم الفاسي ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (٢)، ١٩٧٣م.

الحاوي للفتاوي، جلال الدين السيوطي الحافظ (ت ٩١١هـ)، تحقيق: جماعة من طلاب العلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

حقائق التفسير، السلمي أبو عبد الرحمن (ت ٤١٢هـ)، تحقيق: مخطوط السليمانية ٣٦، مخطوط، تركيا، ط (١)، ١٠٩١هـ.

الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، جلال الدين السيوطي الحافظ (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد بن لطفي الصباغ، عمادة شؤون المكتبات، المملكة السعودية.

الرسالة، محمد ابن ادريس الشافعي أبو عبد الله (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط (١)، ١٩٤٠.

زاد المسافر، عبد الحكيم عبد الباسط السقباني.

سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي شمس الدين (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط (٣)، ١٩٨٥.

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر ابن سالم مخلوف (ت ١٣٦٠هـ)، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ٢٠٠٣.

شعب الإيمان، عبد الجليل القصري أبو محمد (ت ٦٠٨هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٩٩٥.

الصلوات البكرية، محمد البكري أبو الحسن (ت ٨٩٩هـ)، طبعة قديمة.

عرائس البيان في حقائق القرآن، روزبهان البقلي صدر الدين (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: احمد المزيدي، الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ٢٠٠٨.

عطية الوهاب الفاصلة بين الخطأ والصواب، محمد بك الأوزبكي الأوزبكي، مكتبة النيل، مصر، ط (١).

الفتوحات المكية، محيي الدين ابن العربي الشيخ الأكبر (ت ٦٣٨هـ)، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، ط (١)، ١٨٥٤هـ.

الفرق بين الواردات الرَّحمانيَّة والمَلَكية والنَّفسانيَّة والشَّيطانيَّة، محمد بن عبد الكبير الكتاني أبو الفيض (ت ١٣٢٧هـ).

فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي المناوي (ت ١٠٣١هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط (٢)، ١٩٧٢م.

قاب قوسَين وملتقى النَّاموسَين، عبد الكريم الجيلي قطب الدين (ت ٨٣٢هـ)، تحقيق: عاصم الدرقاوي.

القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم، محمد بن عبد الرحمن السخاوي شمس الدين (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة الريان، المملكة السعودية، ط (١)، ٢٠٠٢م.

كشف البراقع بشرح أبيات: توضأ بماء الغيب، محمد بن عبد الكبير الكتاني أبو الفيض (ت ١٢٩٠هـ).

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، اسماعيل العجلوني خاتمة المحدِّثين (ت ١١٦٢هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، مصر، ١٣٥١ هـ.

كشف السر الغامض شرح ديوان ابن الفارض، عبد الغني النابلسي الأستاذ (ت ١١٤٣هـ)، تحقيق: خالد الزرعي، نينوى، دمشق، ط (١)، ٢٠١٧م.

الكلِّيات الأحمدية، محمد أبو الهدى الصيادي أبو الهدى (ت ١٣٢٨ هـ)، مطبعة الواعظ، مصر، ١٩٠٨م.

الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية، عبد الكريم الجيلي قطب الدين (ت ٨٣٢هـ)، تحقيق: عاصم الكيالي الدرقاوي، الكتب العلمية، بيروت، ط (١).

لباب المعاني، محمد العبدلي البحريني الرفاعي العبدلي البحريني، المطبعة الكبرى الباهرة ببولاق، مصر، ط (١)، ١٣٠٧ هـ.

لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط (٣).

لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ)، تحقيق: د.عبد الحليم محمود، المعارف، مصر، ط (٣)، ٢٠٠٦.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي أبو الحسن (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤.

محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، علي دده البوسنوي (ت ١٠٠٧هـ).

المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد ابن حجر العسقلاني أبو الفضل (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، دار العاصمة - دار الغيث، السعودية، ط (١)، ١٤١٩هـ.

المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط (٢)، ١٩٩٤.

معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط (٣)، ١٩٨٨.

المقاصد الحسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي شمس الدين (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (١)، ١٩٨٥م.

المِنح المكيَّة في شرح الهَمزيَّة، ابن حجر الهيتمي المكي (ت ٩٧٤هـ)، تحقيق: احمد جاسم و بو جمعة مكري، دار المنهاج، بيروت، ط (٢)، ٢٠٠٥م.

المنقذ من الضلال، محمد الغزالي الطوسي حجة الإسلام (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج، دار المنهاج، السعودية، ط (١)، ٢٠١٥.

المواهب اللدنيَّة، أحمد بن محمد القسطلاني شهاب الدين (ت ٩٢٣هـ)، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوقيفية، مصر، ط (١).

نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسولﷺ، محمد الحكيم الترمذي أبو عبد الله (ت ٣٢٠هـ)، تحقيق: عبد القادر عطا، الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٩٩٢م.

المُحتَويَاتُ